أبراكساس

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب: أبراكساس**
- **المؤلف: حسناء الفرجاني**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 19912 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 55-3**
- الغلاف: ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

أبراكساس

رواية

حسناء الفرجاني

www.bbibliomania.com

2019

إهداء

إلى كل من قست عليهم ظروف الحياة ولازالوا ينثرون بذور الخير في كل أرض قاحلة مروا بها.

إلى كل من مالت بهم الطرقات وهم على استقامة لا تحيد وبعهد أصدقائهم مخلصين.

إلى كل من عبثت بهم رياح الاكتئاب وهم على قارب الأمل مبحرين، ورغم تلاطم أمواج نفسيتهم المتمردة هم بفكرة شط التفاؤل مؤمنين.

إلى كل من رمم من شجرة الفشل سلما للصعود به إلى القمة.

وأخيرا إهداء خاص بطعم الشكر والامتنان للصديق العزيز والأخ الغالي الفنان التشكيلي محمد صبحي الذي زينت ريشته غلاف الرواية بتحفة فنية اختزلت فيها عمق المعنى بأدق تصوير.

ملاحظة: جميع اللوحات المتواجدة بين صفحات الرواية قمت برسمها لتضفي طابعا فنيا لأحداثها.

*****

تقديم

في عالم تسوده كل التناقضات، حيث يصير الممكن محالا والمستحيل متاحا. وحين تتلطخ الأواصر بالدم وتحترق كل العلاقات ويندثر رمادها على عتبات أبواب تحتضر، حينها فقط يصبح الخير عملة نادرة من الصعب العثور عليها إلا في أنفس قوية طاهرة، لا تتغير وجهتها مهما عصفت بها رياح الظروف وماجت بها مآسي الحياة. ففي رواية أبراكساس اجتمعت كل التناقضات لتنجب الشر بجميع أوجهه، متجبرا في مداه قارعا طبول الحرب تحت راية الحقد والكراهية والانتقام. حرب طاحنة هوجاء داست كل المشاعر والقيم دونما رحمة، وصار الموت فيها لعبة دامية تتأرجح بين المعاناة والتفكير في الخلاص، ليظل السبيل الوحيد للنجاة هو احتراق ما في العقل من ذكاء.

أهلا بك في عالم أبراكساس.

****

يقول من خاض تجربة الموت وعاش ليحكي بعدها أن شدة الإدراك لعنة حقيقية تسوقك إلى دهاليز ما بعد الموت، لتستوعب بعدها أن لا تستعجل أي شيء، فحتما سيحصل حين يحل آوانه.

أدرك الآن تماما أن في أعماق كل منا نبراس يضيء ظلام الشر فينا، وما إن تطالنا يد الظروف حتى يتملك السواد الأعماق، فيولد شخص آخر غيرنا الآن. نتفاجأ يوما بعد يوم بكيان تتغير مبادئه رويدا ليصير بذلك غير الذي عهدناه، وما يوقد فينا الحنين لذاك الشخص هو تسمرنا للحظة أمام مرآة الواقع، وهنا تتغير الموازين، فما نلحظه شخص يلمس أذنه اليسرى بيده اليمنى، ولكن للأسف صورته في المرآة تظهر عكس الرؤية، شخص يلمس أذنه اليمنى باستخدام يده اليسرى، وما وراء المعنى: هل هو انعكاس لبياض السريرة أم لخبث الضمير؟.

كوننا جميعنا نعلم خبث نوايانا القابع فينا، فما تعكسه المرآة ما هو إلا ضوء يخترق ذواتنا دون حدوث أي انكسار، ليعكس قبحنا المكتسب من المجتمع. ها نحن ذا نعيش مثل إبرة الخياطة، كلما خطت خطوة فقدت شيئا من ذيلها. حقا باسم الظروف نفقد الكثير من مبادئنا فنجسد الخطيئة بكل معانيها. والأفظع لا البداية حانت ولا الدرب انتهى...فإلى أي مآل نخطو؟!.

******

الحادية عشر وخمس وأربعون دقيقة ليلا: أول يوم دافئ في فصل الصيف يداهمني وقته دون تحقيق مبتغاي، إذ لم يتبقى سوى خمس عشرة دقيقة لإغلاق المعرض فأغادر بخفي حنين.

شعور ما، إحساس خفي انتابني تجاه تلك اللوحات، أهو حنين لذكريات منسية لم أستطع تذكرها؟، أم تنبأ لشيء ما قريب الحدوث؟. لوحات في قمة بساطتها تجذبني إلى إبحار عميق في محيط معاناتها. ألتمس في عمقها ذكاء ممزوجا بألم، ألم لم يبدأ إلا بابتكار فني يجسد محاكاة لما عاشه أو ربما لما يعيشه. من لوحاته أظن أن عمره يناهز خمسا وخمسين عاما، أجل فهي تحكي خبايا السنين التي تذوق مرارتها بما فيه الكفاية. فمن يا ترى صاحب هذه اللوحات؟ وما سر هذا الحزن الدفين في داخله؟.

حقا لكل إنسان مآسيه السرية التي لا يعلمها إلا الله، معاناة لا يظهرها إلا بابتسامة باهتة تطل على محياه لتلملم انكساراته المتكررة. ولكن للأسف نحكم عليه بمصطلح البرود ومفهوم اللامبالاة، بينما داخله بركان يغلي من شدة الألم، إذ لا يمكن الجزم إطلاقا بأن....

صوت أجش يقاطع حواره الداخلي:

- عذرا سيدي ماذا تفعل؟؟.

التفت ورائه ليجد رجلا أربعينيا، شعره يكتسيه بعض الشيب، هزيل البنية ذا نظرات حادة متفحمة وطبيعة هادئة. ليجيبه ساخرا:

- ما عساي أفعل؟ شيخ هرم يناجي نفسه...ثم....

- قاطع حديثه مستهزئا: ثم ماذا؟.

أجابه مبتسما:

- ثم يأتي أحمق مثلك ويقاطع حوارنا الملائكي....

– هذا الأحمق أمر بإغلاق المعرض لأن الساعة الآن قاربت منتصف الليل. وأشكرك على لباقتك غير المتوقعة مع شيطان أفسد اجتماعك الملائكي.

– هذا لطف منك. أريد أن أسألك سؤالا قبل انصرافي المتواضع هذا.

أجابه ساخرا:

– كيف لمعتوه مثلي أن يجيب على سؤالك.

– وجه شيطاني مكشوف أفضل بكثير من قناع ملاك زائف.

– ما قصدك إذا؟؟.

– لاشيء دعنا من هذا الآن. أجبني أرجوك من صاحب هذه اللوحات؟!.

– تكبر...نذالة أسلوب...عدم اعتراف بالخطأ ولا اعتذار حتى. نظر إليه مستهزئا ثم قال بصوت عال: لقد قلت لك منذ قليل اذهب فقد حان الآن موعد إغلاق المعرض وعد في وقت لاحق، ثم اسأل شخصا غيري يناسب طريقة كلامك اللبقة.

بنصف ابتسامة خطت على تجاعيد محياه وبنبرات صوت خشن خافت أجاب:

– بما يفيد الاعتذار إن لم يكن هناك خطأ بالأساس؟. (كانت نظراته دليلا قاطعا على عدم ندمه).

– قد نتفاجئ أحيانا بعظمة أخلاقنا النزيهة حينما تصدمنا وقاحة الآخرين. أقسم أني لن أشد على يدك وأرميك أرضا خارج المعرض، فما تستحقه فعلا هو أن تلامس قبضتي أسنانك المتناثرة تلك...وضع يده على رقبة العجوز ثم صاح غاضبا: أغرب عن وجهي قبل أن يستفيق شيطاني الآدمي.

بكل هدوء وثقة أجاب:

– أتظن نفسك قد أخفتني!! تأكد حينما نكثر من ثرثرتنا عن الأخلاق والنزاهة المطلقة، حينها نكون قد خبئنا خبثنا خلف قناع الطهر. ومهما فعلنا فسيظل الستار شفافا جدا ليترائى بوضوح تام ما خلف الكواليس، وللأسف سيبدو جليا حقيقة ذاك الإنسان المثالي مدعي الفضيلة الذي يقيم سلوك الناس: ذاك على صواب وذاك على خطأ. وهو في حقيقة الأمر ينتظر أول خلوة ليقتل طفلا لم يتجاوز سنه التسع سنوات بعد بطريقة بشعة رغم محاولته النجاة من أب يلبس ثوب الفضيلة. مسكين هو كان ذنبه الوحيد وجوده كشاهد لجريمتك النكراء التي اقترفتها في حق والدته البالغة من العمر تسع وعشرون سنة. ملقاة على سريرها بعدما خنقتها بكلتا يديك القذرتين. أو ليست هذه هي أفعالك النكراء أيها الزوج الملائكي ذو الطبع المثالي الماثل أمامي الآن؟...نظر صوب عينيه بنظرات حادة وأكمل بعبارات استهزاء: ما بال وجهك الشاحب والتجاعيد البارزة لوهلة بين حاجبيك؟!، هل السبب هو شريط جريمتك القذرة التي يرمقها بؤبؤ عينيك الآن؟!، أم تذكرك لشريط سنواتك البائسة التي قضيتها في السجن؟!.

نظر إليه بعينين بارزتين والعرق يسيل من جبينه، وبيدين مرتجفتين أخرج خنجرا من جيب بنطاله، ووضعه على رقبة المسن ثم همس في أذنه قائلا:

– إعلم أن ما بيننا وبين المدينة الفاضلة سلم من خيال، فلا تصدق أنك ملاك يمشي على الأرض لأنك في الواقع مجرد شيطان ناطق لا يحق له السخرية من أحد. لذا لا تحشر أنفك القذر في خصوصية لا تعنيك قط وإلا سأقطع رقبتك، فكما ترى خنجري مشتاق لمعانقة وريدك.

لم تبدو عليه أي علامات خوف أو توتر وإنما أجابه بكل هدوء:

– افعل بي ما شئت، فأنا لست خائفا من الموت بل من ملاقاة الأرواح التي كنت سببا في رحيلها عن عالمنا. لذا لا تنزعج كثيرا فأنا وأنت نشبه بعضنا إلى حد ما....تأوه ثم تابع كلامه بعينين ذابلتين: المؤسف هو أننا جميعا كنا أخيارا إلا أنه باسم المجتمع والظروف اغتيلت ضمائرنا دون رحمة فشيعت جثمان ذاك الطفل البريء القابع فينا، لنتقمص بنشوة ما تبقى من حياتنا دور الشيطان. المجتمع هو من صنع هذا الفرق، ونحن بدورنا جازيناه بصنعنا هوة هذا العالم.

بعد هذا الكلام المؤثر، طأطأ هورتن رأسه وتراجع خطوتين إلى الوراء ثم أعاد خنجره إلى جيبه قائلا:

– انتظر في الخارج سأخبر السيد إميل أنك تود لقائه.

خرج الرجل المسن دون أن ينطق ببنت شفة معلنا الموافقة. كان يمشي بخطى وئيدة، نظرات حادة وخطواته ترسم طريقا آخر من مشواره الطويل. اتكأ على عمود الإنارة المائل، ضوئه الخافت أضفى عليه نوعا من الأمل لمواجهة شبح الانتظار القاتل. في تلك اللحظة شعر بأن الزمن بدأ يرسم لعبته الدنيئة ببطء، إذ صارت عقارب الساعة عدوه اللدود منذ أن اتخذ من الانتظار أنيسه الوحيد. فقد أصبحت ثوانيه دقائق ودقائقه ساعات. غاب في شرود طارقا باب التجاهل والنسيان، لكن عاد دون تأخير إلى عالمه الواقعي ليكسر الملل ناظرا إلى ساعته ليجدها الواحدة ليلا، ثم قال في قرارة نفسه: هل ما يقولون صائب أم أن حدسي يسير عكس ترهات نفاقهم. ما سمعته أن صاحب المعرض شخص متواضع ومنضبط، لكن ما أنا عليه الآن يؤكد لي أنه متكبر ولا يحترم المواعيد. تنهد ثم تابع حديثه: حقا لقد مللت الانتظار، فقد مر وقت طويل وأنا متسمر هنا كشجرة الصفصاف. مهلا..مهلا..أظن أن ما

تلمحه عيناي هو ذاك الشخص المنضبط محترم المواعيد كما يدعون. مهلا لحظة..أحقا هو مبدع تلك اللوحات؟!. كنت أعتقده شخصا يناهز زهاء خمسة وخمسين عاما، بيد أنه شاب في مقتبل العمر. جيد يا سيد إميل فأنت أكثر براعة مما كنت أظن...على ما يبدو لي شحوب بشرته والهالة السوداء تحت عينيه تدل على ساعات النوم القليلة وإرهاقه الشديد لرسم تلك اللوحات...

– مرحبا سيدي أنا آسف على التأخير...اعتذر إليه وهو يبتسم خجلا من تأخره. كان يبدو شابا متواضعا، نحيف الجسم، طويل القامة، ذو بشرة بيضاء وشعر أسود. لقد كان عكس توقعات الهرم تماما.

أجابه بكل أدب:

– لا داعي فأنا معتاد على هذا دائما.

– لقد أخبرني حارس المعرض هورتن أنك تود لقائي.

– قد قال صدقا...مد يده اليمنى لمصافحته، كانت يده نحيفة وبها تجاعيد، أما أظافره فقد كانت طويلة ومنحنية تضفي نوعا من الاشمئزاز...وتابع حديثه قائلا: هذا الشخص الماثل أمامك الآن، ما هو إلا عجوز أكل عليه الدهر وشرب. يقف في نصف الطريق، يشاهد نصف المسرحية في حياة أمضى فيها نصف الحكاية، لأنه حتما لا يحب النهايات. لكن أنا الآن أريد أن أشتري منك جميع اللوحات وليس نصفها، فما رأيك يا سيد إِميل؟!.

أجابه باسما:

– إذا على ما يبدو أنك أحببت النهايات في لوحاتي. لكن للأسف عندما عقدت للتو معاهدة صلح مع النهايات، شاء لك حظك العاثر بعدم خضوعها للموافقة، إذ أن هناك لوحات لا يمكنني بيعها.

– لم أحب النهاية يوما، غير أن شيئا ما بداخلي أيقظ فضولي لفهم ماهية اللوحات. لكن لما استثنيت بعضها؟!.

أجاب بنبرة حزينة:

– حينما تزداد قيمة الشيء نخاف بيعه، ضياعه أو حتى فراقه، رغم أننا نتقاسم إبداعه الباهر مع محبيه، إلا أن له مكانة خاصة في قلبنا.

– وإن كان فراقه رهين بثمن مغري جدا يفوق قيمته الزائدة في قلبك. فما هو ردك إذا؟!.

– أعتذر منك سيدي...فمهما بلغ الثمن عنان السماء سأكتفي فقط بعرضها لأتقاسم مع الناس حبي لها وليس لبيعها.

– حسنا إذا...على أي حال هذه بطاقتي ستجد رقمي مسجلا فيها. فكر مليا بالموضوع لأن سعادتي الحقة مرتبطة بتغيير رأيك فقط، ومهما طالت مدة تفكيرك إلا أنني سأظل جادا في العرض الذي قدمته لك.

أمسك إميل البطاقة ونظر إليها متأملا شكلها الغريب، ثم أردف قائلا:

– لا أظن ذلك، فتشبثك بالعرض الذي قدمته لي للتو يوازي تشبثي ببعض اللوحات، وهذا ما نسج عبارة مستحيل على بداية صفقة بيني وبينك. لكن هذا لا يعني أنني تشرفت بمعرفتك يا سيد ميشيل.

– لي الشرف أيضا...أراك لاحقا...إلى اللقاء.

– ليلتك طيبة...إلى اللقاء

****

نظر إلى ساعته اليدوية متفاجئا بمرور الوقت الخاطف، فقد كانت تشير عقاربها إلى الواحدة والنصف ليلا. تنفس بعمق ثم فتح باب المنزل ودخل بخطوات وئيدة حاملا سترته على كتفه، متمايلا كعادته مرهقا بالتعب، وما إن أنار المصباح حتى استقبله بيل بنباحه المتقطع فرحا بعودته. كان كلبا ذكيا من فصيلة الهاسكي، أنيسه الوحيد في المنزل بعد ما فقد دفئ عائلته في حادث تقشعر له الأبدان. كانت أخته الصغرى إيمي تناديه بالكلب المشاكس المحبوب. بيل الكلب الوفي للعائلة، ولازال الكلب الأوفى لإميل. ها هو ذا ينحني باسما وهو يمسح بيده اليسرى رأس بيل، ثم همس بصوت خافت ليكسر الصمت المعتاد: أتعلم يا بيل ما بداخلي الآن؟ في الحقيقة لم أحدد ماهيته. هو شعور يستوطنه عدة أشخاص، منهم من يضحك بجنون، ومنهم من يبكي دما، أما أسوأهم هو ذاك الشخص الساكن فاقد الإحساس لايبالي بشيء سوى أن يستجيب لسبات يختصر عمرا من الوجع. لكن من يبدد وجودهم هو أنت، وحدك فقط من جمل بشاعة حياتي وأحرق بؤسي لينير عالم القوة بداخلي. تأكد أن حياتي بدونك جحيم لا يطاق. فأنت الصديق الأوفى والملاذ الأخير. وما إن أكمل كلامه حتى استلقى على الأريكة ليغط في نوم عميق.

رنين جرس عم المكان لينسحب فجأة أمام سلطان صمت قاتل يطبق على الأنفاس. ليعود من جديد في تحد آخر بصوت مستمر بلا استسلام. فتح إميل عينيه بصعوبة ورأسه مخدر من شدة التعب، وكأنما أمضى سهرة انتشى فيها حد الإغماء. نهض متمايلا وأنار المصباح، نظر إلى ساعته اليدوية ليجدها الثالثة صباحا ثم قال متنهدا: رحماك ربي من الطارق فجرا؟!. خرج

من منزله وفتح باب الحديقة لكنه لم يجد في الخارج أحدا. وحينما هم بالدخول وقع بصره على لوحة خشبية فوقها رسالة وضعت على درج صغير متصل بباب الحديقة. ابتسامة عبثت بملامح محياه، فأضفت نوعا من البهجة على وجه أنهكه التعب، ثم قال باندهاش: أحقا ليليانا تحبني وتبدي عكس ذلك؟، فمن المؤكد هي من أرسلت هذه الهدية باقتراب عيد ميلادي. اتجه مهرولا وحمل الرسالة وأسرع بفتحها متلهفا لقرائتها: "أهلا إميل، أعلم أنك وحيد مجددا لهذا لم يفتني أن أكون أول المهنئين لاقتراب عيد مولدك. أرجو أن تعجبك هديتي رغم أنها لوحة بسيطة إلا أن في أعماقها كنز يختزل حياة بكل تناقضاتها. أتعلم يا سيد إميل بأن الحياة لغز غريب ونقطة لقاء تجمعنا مهما افترقت بنا السبل. هي ببساطة دائرة تحيط بنا ونحن لا ندري. ومهما تعددت الوقائع إلا أن النهايات تختلف، وها هي ستعاد بطريقة أفظع إن أمكن وتعطي لنفسها أكثر من حق، ضمن الكل أو البعض...مع هذا أو ذاك...ليس المهم هنا أن تبحث في أصل الأشياء، فمن بحث في أصل الألماس وجده فحما، لهذا ما يهم هو مسايرة ما يحدث بذكاء. إننا نبكي أحيانا من شدة الفرح ونضحك باستهزاء، إذ ليس كلما يراه الناس يعكس ما نعيشه في حقيقة الأمر، فالجبل الجليدي جزءه المطمور أكبر مما يطفو على السطح. فلا تنكر أن ما تبديه هو فعلا حقيقة ما تخفيه، لأننا في الحقيقة مرضى الضعف ونأبى العلاج تحت رعاية الاستسلام. لكن دائما ما هنالك يد خفية تمتد بلا استئذان كترياق سحري يخلص أرواحنا من موت بطيء يطحن في سكته كل الأحلام والأفراح. فيتغير كل شيء...إذا يا سيد إميل لك شرف التغيير في لعبة انطلق عدادها منذ الآن. قد تظنها لعبة عادية يصيب الحظ فيها في أول مرة أو في ثانيها، ولن يصيب بعد ذلك قط. فهنا لا مجال للحظ، لأنه في كل مرة سيغيب فيها سيسدل ستار النهاية. ولكي يظل دورك قائما في

عالمنا فكر مليا بالطريقة المثلى للعب؛ طريقة تحتضن في ذكائها قوة لن تستمد إلا من الرقم الثالث المنحصر في تبادل الأدوار. لذا الخسارة هنا ليس انفعالا أو تحسرا، وإنما هي خطيئة لا تغتفر إلا بالموت. حينها سيصير الرقم الخامس مجبرا على نسج هوة الوداع. تذكر دائما أن ذكائك هو قارب نجاتك الوحيد، ولك أن تختار: إما أن ترغمني على الغرق، وإما سأرمم تابوتك. وتأكد أنك لن تصل إلى الباب المقصود إلا إذا طرقت بابين خاطئين. أسرع في مجاراة الزمن كيلا تفقد دفئ الأسرة من جديد. ولا تستخف أبدا بما سيحدث كقول الجدار للجدار سنلتقي عند الزاوية، بل كن ذا نظرة أبعد فالزمن هنا عدوك الخفي الذي لا ينام.

ختاما سيد إميل، سيظل أمامك خيارين أحلامها مر: إما أن تخوض غمار اللعبة محترفا قواعدها بذكاء فتنال لقب الناجي الوحيد، وإما أن تعتبرها مزحة صيف عابرة قد تبكيك حد الجنون...تذكر أن اللعبة بيني وبينك الآن، فهي تشبه المقص الغاضب أي غريب بيننا مصيره ليس بأقل من مصير الأوراق اليابسة.

أهلا بك في عالمي الخاص، فهنا الخسارة لن تعلمك كيف تربح مستقبلا، وإنما كيف تربح ما تبقى منك. لذا قبل أن تخلد للنوم لا تنسى إطلاقا بأن تحمي الأقرب إلى قلبك.

أعدك سنلتقي قبل الوداع الأخير."

حينما انتهى من قرائتها تملكه شعور غريب، خوف ممزوج بسخرية لا يدري ماهو بالتحديد. وازداد المشهد غرابة حينما اقترب من اللوحة وحملها متمعنا في خباياها. لوحة احتوت رسما أحادي اللون ثلاثي الأبعاد لورقتي لعب. الأولى تحمل رقم ثلاثة والثانية تحوي رقم خمسة، وكرة البلياردو السوداء بدورها أيضا نقش عليها الرقم ثلاثة، وفي أسفلها من الجانب الأيمن بصمة يد بلون الدم.

الغريب في الأمر أنه لم يجد اسم المرسل أو عنوانه. حملها تم التفت في أرجاء الحديقة، وظل متسمرا في مكانه لساعات، ساورته أفكار مريبة لكن سرعان ما عاد إلى واقعه وطمأن نفسه بابتسامة ساخرة قائلا: ما هذا الذي كنت أفكر فيه؟، فالأمر كله لا يعدو أن يكون مجرد مزحة ثقيلة. ربما ليليانا أوسام...أيعقل أن يكونا معا؟!...هما الوحيدان اللذان يحتفلان بعيد مولدي. وبنظرة خبيثة أكمل كلامه: سأتصل بليليانا وأشكرها على اللوحة فهي هدية جميلة بالفعل.

أغلق الباب وبسرعة الريح حمل سماعة الهاتف وخلال ثواني أجابت ليليانا بصوت متثاقل:

– أهلا إميل...كيف حالك؟!.

– مرحبا ليليانا أنا بخير، لا أريد أن أفسد فرحتكما بالمقلب، لأن ما أوده فعلا هو شكركما على الهدية.

أجابت مستغربة:

– لم أفهم؟! ما قصدك؟!.

– دعيني أخمن: أهذا تساؤل أم استغباء؟! أم أنك تودين إخفاء أمر يبعث في نفسي سعادة لا توصف بكونك تذكرت عيد ميلادي؟!.

– نعم إنني أتذكر بالفعل عيد ميلادك، لكن هذا لا يعني بأنني لن أرسل لك هدية، فقد كنت أنوي أن أشتريها لك غدا صباحا ومتأكدة أنها ستعجبك.

أجابها متحمسا:

– أنا حقا أتوق لرؤيتها.

أجابت بحسرة:

– يا للأسف لأول مرة في التاريخ يسبقني سام ويقوم بإرسال الهدية إليك...ترى ما شكلها؟.

أجاب مستغربا:

– عجيب أمره كان لا يتذكر عيد ميلادي إلا بعد مرور عدة أشهر. أتعلمين...إذا كان هو المرسل فحتما نهاية العالم قد حانت. ليليانا أنا آسف حقا على إزعاجك في هذا الوقت المتأخر.

– أتعرف شيئا! أزعجتني كثيرا بكلمة آسف...لا تتفوه بها مرة أخرى وإلا لن أجيبك بعدها ههه..

أجابها باسما:

– أمرك عزيزتي...ليلتك طيبة.

– أحلاما سعيدة وواقعا أجمل إميل..إلى اللقاء.

وضع هاتفه على الطاولة بالقرب من اللوحة، ونظر إليها من جديد وقال ساخرا: يا لحماقتي!! هذه اللوحة ذات الرسوم الغريبة لا يمكن أن تكون هدية من فتاة رقيقة وجميلة مثل ليليانا. إنها لا يمكن أن تكون إلا من اختيار سام فهو غريب كفاية ليرسل هكذا لوحة. نظر إلى ساعته وتابع قائلا: لا داعي لأن أتصل به الآن فمقلبه هذا بات مكشوفا وليس علي إلا مجاراته في ذلك كي يزداد الأمر متعة وتشويقا. أطفأ النور ثم اتكأ على الأريكة وعيناه تحملقان في عتمة المكان، تسبحان من ركن لآخر، شارد الذهن هو، يهيم وسط زوبعة أفكار وتأويلات. لا يكف عقله المسكين عن التحليل وهو وحيد كعادته لا يحرك ساكنا. فجأة مر شريط حياته السوداوي أمام عينيه. وضع يديه خلف رأسه ثم أغمض جفنيه، وأبحر طويلا في بحر مخيلته، ليغوص بذلك في أعماق الذكريات...لم يجد سوى شخص اسمه إميل، أو

بالأحرى روحا أنهكها طول التفكير ومزقتها الذكريات إلى أشلاء. ماضيه لا يفارقه مطلقا إذ صار ظله وتوأمه الذي لا يحيد عنه. كيان ذاق اليتم في سن الثامنة عشر، وعاش أحداثا دامية غيرت مجرى حياته....يوم الخميس على الساعة التاسعة صباحا كان يحتسي كوب قهوة وهو منهمك في إتمام رسم لوحته، وبيل بجانبه متحمس يهز ذيله بقوة في الهواء وهو ينتظر بفارغ الصبر ما ستؤول إليه رسومات صديقه إميل. في تلك الأثناء رن هاتف المنزل موقظا إياه من حلم الإبداع المنسوج من طرف خياله الواسع. كان المتصل شرطي أخبره بأن والده وأخته الصغرى إِيمي راحا ضحية سطو مسلح على مؤسسة بنكية، ولسوء حظهما كانا متواجدين فيها. أما والدته إِميلي فقد نقلت إلى المستشفى على الفور لتلقى العلاجات اللازمة. لازالت هذه الكلمات تسري في جسده كالسم الزؤام وتقطع جوارحه ببطء. ولازال يتذكر ركضه في الشارع كالأحمق، لا يدري إلى أين يتجه، ولا ماذا يفعل، غير مصدق أو آبه بما يحدث حوله، حتى ساقته قدماه إلى المستشفى. وبنظرة شاردة رمق والدته إميلي مستلقية على السرير بدون أي حراك، غائبة عن الوعي وبجانبها مجموعة من الأجهزة تمتد منها أسلاك نحو جسدها. اغرورقت عيناه بالدموع وسقط منهارا جاثيا على ركبتيه، وهو يصرخ من شدة الألم الذي كان يعتصر قلبه. صرخات حزينة تعكس أحاسيسه الممزقة بين سندان فراق والده وكذا أخته الغالية، وبين مطرقة صراع والدته من أجل البقاء. لازالت تلك الصرخات حية في داخله مهما حاول كبحها وإخفائها إلا وعلا زئيرها في الأعماق. لم ولن ينسى الإحساس الغريب الذي ساوره وهو واقف أمام غرفة والدته في المستشفى. كان يرمقها بحزن دفين لم يطفئ لهيبه سوى بصيص أمل بأن والدته ستظل إلى جانبه تقاسمه جبل الأحزان الذي أثقل كاهله. لم تمضي إلا هنيهة عن طمأنة الطبيب له وذلك لنجاة والدته من الموت بأعجوبة، حتى وضع

يده على كتف إميل ثم تابع حديثه قائلا: للأسف رغم أن حالتها مستقرة الآن إلا أنها ستظل هنا تحت المراقبة إلى أن تستفيق من الغيبوبة. بابتسامة باكية وبفرحة يعتصرها الألم تلقى إميل هذا الخبر. مرت أيام على الحادث الأليم وما زال إميل غير مصدق أبدا بأنه شيع جثمان والده وأخته معا في يوم وداع للأبد. مشاعره كانت مبعثرة ومتناثرة هنا وهناك كأوراق الخريف، يائس حزين بما فقد ومتفائل فرح بنجاة والدته..

في مساء يوم الأحد تلقى اتصالا أسعده كثيرا بخصوص والدته التي استفاقت من الغيبوبة أخيرا ويمكنه زيارتها. لم يتمالك إميل نفسه واتجه مسرعا نحو المستشفى، غير مكترث بما حوله وكأنه في عالم خاص، عالم يجمعه بوالدته...هما معا ولا أحد سواهما. ظل هكذا سابحا في ملكوته على طول الطريق إلى أن وقف أمام الغرفة وهو ممسك بباقة ورد الأوركيدا، وهو يقترب شيئا فشيئا بدأت نبضات قلبه تتسارع أكثر من ذي قبل حينما همس صدى أغنية حزينة في مسمعه والتي كانت منبعثة من الغرفة. ولج بهدوء وسكينة ليصدم بعدها بوجود الطبيب والممرضة بجانبها وهما يسحبان غطاء السرير الأبيض على وجهها. تابع إميل ما يحدث مشدوها متجمدا وعيناه تراقبان الطبيب وهو ينحني ليأخذ هاتفها ذو الغطاء الوردي وذلك من أجل أن يطفئ الأغنية المنبعثة منه. على ما يبدو أنها كانت تستمع إليها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. في تلك اللحظة التفت الطبيب صوب إميل واقترب منه ثم ربت على كتفه وبنبرة حزينة قال:

– حاولنا ما في وسعنا إنقاذها لكننا لم نفلح في ذلك.

لم يستوعب إميل كلامه إذ صرخ مستغربا:

– كيف حدث هذا؟؟ أولم تخبروني أنها بخير ويمكنني رؤيتها؟؟.

أجابته الممرضة معقبة على ما قاله:

– بلى...كان كل شيء على ما يرام إلى أن قررت هي ذلك. وبسطت كف يدها لتريه علبة مسكنات شبه فارغة في إشارة منها إلى انتحار والدته.

لم يتمالك إميل نفسه وارتمى في أحضانها وهو يقبل جبهتها الشاحبة ويصرخ باكيا: إنكم مخطئون والدتي لم تنتحر إنها فقط فاقدة للوعي. ابتسم كالمجنون ثم تابع كلامه قائلا: هيا انهضي أعلم بأنك تسمعينني...انهضي أرجوك...مد يده وهو يضع باقة الورد بجانبها وتابع عباراته المؤلمة...انظري ماذا أحضرت لك، إنها أزهارك المفضلة. وبعدها صار يهزها بكلتا يديه ويصرخ كالمعتوه...لما أنت صامتة هكذا؟. وهذا ما جعل الممرضين يسحبونه بقوة، وبينما هم يحاولون إخراجه من الغرفة، التفت بنظرة حزينة ذابلة ليرى جهاز قياس نبض القلب خطه قد استقام، وإحدى يديها تدلت من على السرير. وفوق الأرض تناثرت بعض من ثويجات أزهار الأوركيدا. حينها اقتنع مرغما مستسلما لهم دونما أدنى مقاومة منه. أرخى يديه مذعنا، طأطأ رأسه وطنين قوي في أذنيه كسر صمت داخله. في تلك اللحظة أصبحت رؤيته مشوشة وتوقف تفكيره كأنما تأرجح به المكان، ماجعله يتكأ على باب الغرفة ليعيد توازنه المفقود. بعدها أسند ظهره إلى الحائط وانساب منه عرق بارد من أعلى جبهته ليعم سائر جسده، رفع رأسه إلى أعلى وانهمر الدمع على محياه وأرخى بجسده المتثاقل على الحائط منهارا وأردف باكيا: كيف طاوعك قلبك الحنون بأن تتركيني وحيدا تائها في هذا العالم القاسي المريض؟! لما قررت يا إميلي الرحيل تاركة إياي هنا؟!.

لم ولن ينسى إميل وجه والدته الحزين فقد كانت آخر مرة يراه فيها. كانت آنذاك شاحبة مستلقية على السرير بملامح ذابلة. ظلت هذه الصورة القاتمة تعشش في ذاكرته، كما ظلت

كلمات تلك الأغنية المشؤومة محفورة في ذهنه تتردد في مسامعه إلى الآن، أغنية كئيبة تسرد معاناة صاحبها. فكيف لأغنية يستمع لها المرء أن توقظ حزنه الدفين فيه ليقوده هو الآخر نحو الكآبة والانتحار؟، وهذا ما شكل السبب الوحيد لما حدث لوالدته في ذاك اليوم، إذ لا يمكن تناسي ذلك المشهد المؤلم أبدا، حيث انهمرت دموع إميلي لتضفي بريقا على ملامحها البائسة، فلعلها أيقظت في نفسها ذكرى جميلة عاشتها ولن تتكرر أبدا إلا بمغادرتها هي لإميل وبيل هذا العالم. فربما من هول الصدمة ورعب الأحداث استجابت لنداء الأغنية وقررت النوم دونما استيقاظ.

الأحد القاتم أغنية كرهها إميل إلى درجة الغثيان، فقد سلبت منه روحا لطالما تمناها بأن تظل معه لتكون له سندا على تحمل أعباء الحياة. والدته تلك المرأة الشجاعة الجبانة. في نظره شجاعة لأنها أقدمت على فعل الانتحار وفي نفس الوقت جبانة لأنها اتخذت من الهروب الحل الأمثل لأحزانها، حقا امرأة جسدت التناقض في حد ذاته.

في ذاك اليوم بالتحديد أتى جده فيتالس ليشيع جثمان ابنته إميلي. حاول بعد ذلك جاهدا ليخرجه من دهليزه المظلم، وقد نجح فعلا بانتشاله من براثن الاكتئاب لكنه غادر بدوره العالم الدنيوي بسلام تاركا إميل منفردا وهو لم يبلغ العشرين من عمره. لم يتبقى له من عبق الماضي سوى بيل كلبه الوفي، فهوالآن أنيسه في وحدته وعزائه في محنته. إنه يتذكر ذلك جيدا وهو يشارف الآن على إتمام أربعة وعشرون عاما من حياته وسعيد نوعا ما بتواجد بيل معه في عيد ميلاده الذي سيحتفل به يوم الثلاثاء المقبل.

صمت كنائسي رهيب يعم عتمة الفضائين "النفس والمكان". تكسر فجأة داخل إميل ليقول بعدها في داخله: أحيانا لا نعرف قيمة ما نملك إلا بعد أن نخسره أو بالأحرى لم نكن نظن

بأننا سنخسره يوما، وهذا ما حصل معي بالذات، لم أبالي قط بدفء العائلة حتى ارتميت بأحضان الوحدة التي ضمتني بكلتا يديها وأبت بأن لا تترك لي مجالا للانفلات، أناورها بين الفينة والأخرى بالانعتاق وذلك بفضل سام، ليليانا وبيل، لكن لا جدوى في أمل مشرق قط. فهي كعجوز شمطاء لا تمل، تظل ممسكة بأظافرها العفنة شظايا الذات لأعود مجددا إلى حضنها المعتاد طفلا خاضعا طائعا جاثيا على ركبتي مستسلما تماما لرغبتها القاتلة، وما بين الخضوع والخلاص أقسم بأني سأشكل الفرق.

تنهد إميل وسالت دمعة سهوا أنهى وجودها بيده اليمنى التي مسحتها خلسة عن مرآه. فتح جفنيه، نهض ووضع يديه على الطاولة ثم أخذ زفيرا طويلا. ظل ساكنا للحظة ثم تحدث بصوت مرتفع قائلا في خيبة أمل: لا أعتقد بأن ليليانا ستقبل بزوج مثلي؟!، حياة مأساوية كهذه لا تستحق سوى أن يسدل الستار عليها وتخط النهاية، حقا أتمنى أن يطالني إعصار نسيان عارم ينتشلني مما أنا فيه الآن. هل حقا ستكون ليليانا الملاك المنقذ أم هي الصدمة الكبرى المتجسدة في الرفض؟!.

سكون طال المكان لبرهة من الزمن، اتكأ على الأريكة ووضع يديه في جيب بنطاله، ابتسم ثم تابع حديثه مسترسلا: أتذكر ذاك اليوم الأول من يناير، أمام باب المطعم، كانت الساعة وقتئذ تشير إلى منتصف الليل، حيث لمحت حينها في طقس بارد شابة بيضاء البشرة، متوسطة القامة، ذات شعر أسود، إنسانة يبدو عليها الوقار والاحترام. أحببتها منذ الوهلة الأولى التي أرمقها فيها. وكان بجانبها شاب بدين شيئا ما، طويل القامة، شعره أشقر ويضع نظارة طبية. حاملا في يده اليسرى حاسوبا صغيرا رمادي اللون. وبينما هو يلوح بيده اليمنى في الهواء

كأنما يشرح أمرا، اختلست السمع قليلا وحاولت جاهدا سبر أغوار الحوار، لأعلم في نهاية المطاف بأن سيارتهم قد تعطلت. اتجهت صوبهم وبادرتهم الحديث مقاطعا حوارهم بأدب:

– فضولي مثلي يود مساعدتكم فما رأيكم؟!...

قاطعت ليليانا حديثي باسمة:

– آه لو كان الجميع مثلك لكان العالم برمته بخير.

أما سام فالتفت إلي مزيلا قبعته السوداء قائلا:

– فضولك يسعدني، لقد تعطلت سيارتنا ونحتاج من يمدنا يد العون؟!.

نعم لازلت أتذكر حوار لقائنا في تلك الليلة وأحفظه عن ظهر قلب. ذكريات بؤس تتخللها ومضات سعادة، نسجها بالفعل أصدقاء حقيقيين. ليليانا جعلت من صخب الحفلات أمرا محبذا لي، بعدما تكبدت مرارة العزلة وتجرعت علقمها على مضض عاما كاملا، فتاة أحببتها أكثر من عشقها هي لزجاج الكريستال. أما سام بذكائه الباهر ونبوغه البارز في مجال التكنولوجيا الحديثة، جعلني أعيد النظر بالفعل في فكرتي المسبقة عن عالم الإلكترونيات. إنسان مرح بطبعه، يذكرني حتما بشخص ضاع مني في خضم تراكمات ماض قاس أليم. أتمنى أن تشفق علي الحياة ولو لمرة، وذلك بعفوي اللامشروط من وطأة قسوتها لأحيى بذلك ما تبقى لي من العمر عرسا ينسيني جنازة الماضي الغابر.

نظر إميل إلى ساعة هاتفه ثم قال بتعجب:

– ما الذي أصابني؟!، أتحدث مع نفسي بصوت مرتفع في الساعة الرابعة إلا ربعا صباحا. أي تخبط في دهاليز الجنون هذا؟! أظن أنني إذا بقيت على هذا الحال لن أعيش عرسا بل سأعيش بما تبقى لي من أنفاس في المارستان؟!. نهض من فوق الأريكة، اتجه نحو غرفة نومه، غير

ملابسه وارتمى على سريره آملا أن يستفيق على غد أفضل. جل أمانيه هو واقع أجمل ينسيه ماضيه الأسود مدى الحياة، ولو تطلب الأمر غسيل ذاكرة.

****

شمس صيفية فارطة الحضور، تخترق زجاج نافذة الغرفة معلنة ولادة يوم جديد. إميل نهض مرحبا شيئا ما بها، متثاقل الخطى متمايلا جيئة وذهابا. اتجه بخطوات غير متزنة كأنما شرب حتى الثمالة. رمق بعينيه ساعة الحائط ثم أردف قائلا:

– تسع ساعات مضت وأنا ملقى على السرير جثة هامدة. لا أستغرب ذلك ففي صبيحة كل يوم أحد أفتح عيناي على الساعة الواحدة زوالا.

خرج كعادته متثائبا من الغرفة، متجها صوب الحديقة لينادي بيل. وما إن فتح باب الحديقة حتى لمحت عيناه قطرات دم متناثرة في كل الأرجاء هنا وهناك. تتبع أثر الدم، كان خائفا جدا، متوجسا وحذرا في نفس الآن. وفي لحظة من الترقب والوجل، أحس بفزع ممزوج بتوتر، ما جعل قلبه ينبض بقوة. وبلغ أوج توتره حينما رأى كلبه بيل ملقى على الأرض جثة هامدة سابحا في بركة من الدماء. لقد انطفأت من جديد شعلة أخرى كانت تنير دربه المظلم، ودق معها مسمار آخر في نعش سعادته. انهار جاثيا على ركبتيه وهو متأكد تماما بأن أنيس وحدته قد فارقه إلى الأبد. في تلك اللحظة إحساس شؤم غريب انتابه، وبدأ يعود بذاكرته إلى الوراء، ليستشف في نهاية المطاف بأن انتحار والدته كان يوم الأحد، في مثل هذا اليوم تماما، وبأن معظم المآسي التي مرت به كان الأحد هو زمنها، مصادفة غريبة جدا ذكرته بقصة الأحد القاتم، ثم قال باكيا: منذ ثماني عشرة سنة بكيت فيها دما أكثر مما ضحكت، عشت

بؤسا وألما ولم أرى للنعيم والراحة ملاذا ولا مسكنا. لماذا حينما أصل إلى يقين تام بأني سأبلغ نهاية الدرب رغم صعوبة المطبات، أجد نفسي تائها حائرا في صحراء قاحلة مطموسة المعالم، ودائما ما يحصل شيء ما سوداوي خفي عصي عن الفهم والإدراك، يسلبني مما وصلت إليه بعد عناء دام طويلا، تجرعت فيه الويلات حنظلا، ليعيدني من حيث بدأت وكأنني أركض لاهثا في دائرة مفرغة، أو كثور عجوز خارت قواه من كثرة الدوران حول الساقية باحثا عن ذيله. صرت الآن متأكدا تماما بأن السعادة لم يعد لها مكان في قاموسي البتة. هل الحياة حقا تريدني أقوى؟! أم أن حظي فيها هو تعاستي؟!. أحلم دائما بغد أفضل ينسيني مرارة الماضي، لأستفيق بعدها على صفعة كابوس مؤلم، يحيى في رغبة بطعم الانتحار. نظر إلى بيل بعينين حمراوتين بارزتين ثم تابع كلامه قائلا:

– سأعمل جاهدا لكي أعرف من فعل بك هذا، وأعدك بعدها سأجعله يتجرع المر كؤوسا، وسأذيقه من العذاب ألوانا. نم الآن مرتاحا صديقي المخلص. وما إن أكمل كلامه حتى سمع شخصا ورائه يقول:

– عندما تتناسل المصائب ويطفو بعضها فوق بعض تصير بذلك ذو قدرة هائلة على التحمل ولا يصبح للخوف مكان في قلبك. فالضربة التي لا ترديني تزيدني حتما قوة وصلابة. أليس كذلك؟!.

التفت إميل خلفه، طأطأ رأسه هنيهة، وانسابت دموعه معلنة التمرد مستجيبة لنداء التخفيف عن حرقة الذات، ثم أردف قائلا:

– لماذا يحصل معي كل هذا يا هورتن؟!.

أجابه مربتا بيده على كتفه:

– أتريد أن تعلم لماذا؟!. لأن الله يريدك أن تكون أقوى مما أنت عليه الآن. أمسك بذراع إميل وأدخله إلى المنزل، ثم ناوله كوب ماء، وتابع كلامه قائلا: لا تلم نفسك كثيرا، ولا ترهقها بأحداث وقعت وانتهى الأمر. فمستنقع الماضي الضحل لن يكف عن سحبك إلى أعماقه القذرة إن لم تتطلع إلى حاضرك بأمل مشرق. فالتفاؤل وقت الانهيار ذكاء، والثقة في النفس ساعة اليأس قوة، والإصرار على البقاء في خضم المصائب ورغم الاكتئاب طريق حي للنجاح. لذا تصالح مع جانبك الحزين فحتما هذا هو أساس سعادتك الضائعة. ملأت حسرة عينيه، وخالجت فؤاده رعشة كسته بالضعف والشتات ثم نطق بعدها:

– أتعلم بأن الحياة لم تعد تعني لي شيئا بالمرة.

أجابه هورتن:

– جملتك هاته هي أحجية حلها ما هو إلا تجاهل شعور الذات ويتضمن الوجهين.

– كيف ذلك؟!.

– يقال بأن الجملة السليمة الناتجة عن التفكير السليم هي أنسب شيء للحصول على الطريق السليم. الحياة لها معنى من جهتين، من جهة كونك متفائلا قويا ومن جهة كونك يائسا مستسلما. والأغرب في الأمر أن معنى الحياة ذاته لا يتأثر أبدا بالتفاؤل أو اليأس لأن معناها مرتبط بإرادة الذات. فالصبر وقوة العزيمة وحدهما كفيلان بصنع نظرة خاصة للحياة. وهذا لا يمكن لأي شخص إدراكه هكذا، إذا كان منغلقا متزمتا في طريقة تفكيره، منحصرا في دائرة ماضيه التعيس. أما إذا أرغم نفسه بالتمرد على الضعف وراهن بالاستمرار قدما دون استسلام، فإنه يقف حقا على معنى الحياة بمفهومها الصافي النقي، فهذا مرتبط بداخلنا أكثر مما يبدوا. لذا أي الطريقين وجهتك؟!.

– ليس طريقين، بل قل بأي تيه سأزج نفسي فيه؟!. المحزن حقا هو ما وراء البحت، إذا وجدت المعنى وضاعت الذات بإرغام الشعور على التفاؤل سأعيش مذنبا في حقها وذلك بإرادة مني.

– في كلتا الحالتين ستكون مذنبا. فقد حدث ما حدث والماضي رضخ لوقائع الزمن، إذا لا تكن مثله بتوقيعك لمعاهدة بؤس تفضي بحياتك نحو الهاوية. بل كن ذا نظرة أبعد، نظرة مفعمة ببريق أمل تطرد بها الأفكار السيئة من مخيلتك قبل أن تكون سبب هلاكك.

– إلى متى سأظل مذنبا في حق تلك الأفكار، مادام حظي كقرصان ضرير أمضى عمرا كاملا في بناء سفينة لإحضار الكنز، وما إن انتهى حتى جف البحر.

تبسم هورتن ثم قال:

– إن كنت ممن يتذمرون بحظهم طول الوقت، فأنت بالتأكيد لم تسمع عن الرائد البريطاني والتر سمرفورد الذي عرف بأنه الرجل الأسوأ حظا في العالم. لذا ابتسم، فنصيب سعادتك من الحياة سيكرر زيارته لك مهما عبت الشجن بالمسافة الفاصلة بينكما.

– أظن بأنني نسخته الثانية في عالم البؤس.

– أووه ما هذا التشاؤم؟! لماذا يا إميل ترى الأمور من زاوية ضيقة؟!، لما لا تشكل من تعاستك سعادة تنسيك ألم السنين؟!. لا تكن أبدا مستسلما للتيار، مختبئا خوفا من العاصفة، بل تعلم المجازفة بالرقص تحت المطر، ولا تأبه بهزيم الرعد المدوي، ولا بسنا البرق، بل اجعل من ذلك ديكورا يؤتت فضاء الرقصة.

ظل إميل ساكنا لوهلة كأنما يتذكر شيئا ما، نصف بسمة خالجت تباشير وجهه، ثم أردف قائلا بنظرات ناعسة:

– رغم أن الحوادث لا تكف عن الجريان، ولا الفرح يعرف إلى قلبي منفذا، إلا أن والدتي رسخت بصمة أمل فيّ قبل وداعها الأليم. فقد كانت تردد دائما عبارة مستوحاة من أسطورة الياسمين مفادها أن من ينحني يسهل تغييره وتشكيله ومن بقي شامخا سيعانقه البياض لا محالة.

أومأ هورتن برأسه، وعلت ابتسامة عريضة محياه. وبعد أن أخذ الحديث مجرى آخر، اقتنع صاحبنا أخيرا من تمرد إميل على شيطان يأسه ثم قال بعدها:

– أحسنت حقا، هذا هو إميل الذي أعرفه دوما.

رفع إميل رأسه مستفسرا:

– نسيت أن أسالك عن سبب زيارتك لي يا هورتن؟!.

– لقد تغاضيت عن الأمر، فأنت لست في حالة تسمح بنقاش أمر العمل. لأن دفن بيل أولى من الانشغال بأمور أخرى.

– لا عليك، هات ماعندك.

– أتعلم بأن ثمن اللوحات التي تحتفظ بها يمكن أن يجلب لك ثروة ضخمة ويشيد لك معرضا فخما في أرقى مدينة في العالم.

– ارتفع الثمن إذا؟؟ اسمع يا هورتن...هذا شيء لا يهمني على الإطلاق، ولا يشغل تفكيري البتة. فأنا أرفض هذا العرض وأعتبره لاغيا.

– حسنا...لك ما أردت.

ظل إميل ساكنا وكأنما يفكر في أمر ما، وهذا ما جعله لم ينصت بالمرة لما تفوه به هورتن. لوح هورتن بيده اليسرى أمام وجه إميل في حركة يراد بها جذب انتباه المخاطب، ثم قال:

– إلى أين سافرت؟!.

أجابه إميل غير مبال بما قال:

– مهلا لحظة..كيف دخلت إلى هنا؟!.

ابتسم هورتن قائلا:

– أراك تشك في أمري!؟ لقد وجدت باب الحديقة مفتوحا فأثارني الفضول وألقيت بذلك نظرة خاطفة على المكان، حينها لمحتك منهارا تماما فسارعت إلى مد يد المساعدة.

– اعذرني فأنا لم أنوي بك سوءا، لقد كان مجرد استفسار بريء لاغير.

– خطأ بسيط كهذا أودى بحياة صديقك الوفي بيل. لذا تأكد دائما من إغلاقك باب المنزل وباب الحديقة بإحكام. فذووا النفوس المريضة ينتظرون هفوة ساذجة لينفسوا عن مكبوتاتهم وعقدهم النفسية.

– معك حق، لكن أعدك بأن من أقدم على هذه الفعلة لابد وأن ينكشف يوما. فمهما تربع الليل على عرش السواد إلا أن رداء ضياء النهار ساطع ليكشف خبث النوايا والضمائر السيئة.

وضع هورتن يديه على رأسه وتصبب عرق من جبينه، وبيدين مرتجفتين طلب من إميل بأن يحضر له كأس ماء. بعدها أمسكه إميل بيديه وساعده على الجلوس، ثم ذهب مسرعا.

وحينما غادر المكان، انتهز هورتن فرصة غيابه المؤقت. وأخذ المفاتيح من فوق الطاولة ثم قام بنسخها وإعادتها إلى مكانها المعتاد على الفور، ثم عاد إلى وضعية المرهق من جديد. وحينما رجع إميل من المطبخ جلس بجانبه على الأريكة وناوله كوب ماء ثم قال:

– مابك!! هل أنت بخير؟!.

– لاعليك أنا بخير، لقد أحسست فجأة بدوار بسيط.

وضع هورتن الكأس على الطاولة بعدما أخذ رشفة صغيرة منه. اتكأ على الأريكة ثم قال:

– منتصف يوم حار أنهكت حرارته المفرطة جسمي...وما إن أكمل حديثه حتى مد يده اليمنى لمصافحة إميل، ثم أردف قائلا: سأغادر الآن، وإن احتجت مساعدتي بأي شيء فأنا رهن الإشارة.

– شكرا جزيلا لك، كل ما أحتاجه الآن هو أن تعتني بنفسك.

بعد خروج هورتن، أغلق إميل الباب، تناول حبة مهدأة ثم عاد إلى عالمه سابحا من جديد في دوامة من التساؤلات، تساؤلات عديدة مغلفة بشيء من الندم لما جرى لصديقه بيل. كان شارد الذهن يبحث بإلحاح عن جواب يشفي غليله، ويعطيه سببا وجيها لما حدث. وراح يردد في داخله: لماذا حدث هذا؟! وهل هناك مؤامرة دنيئة تحاك ضدي في الخفاء وأنا لا أدري؟! أم هو مجرد خيالي المريض الذي صور لي أشياء لا وجود لها أصلا؟! لماذا دائما يرحل من أحبهم بدون سابق إنذار؟!. تأوه بمرارة للحظة، وأخرج زفيرا حارا كان يثقل على صدره، وبعض من الدمع غالب عينيه ثم واصل قائلا: كيف حدث هذا؟! أنسيت فعلا إغلاق باب الحديقة لأني كنت متعبا حينها؟ أم أن هورتن تلاعب بأفكاري وحاول إخفاء شيء ما عني؟!. ولكن لما يفعل هذا؟ وأي مصلحة له في ذلك؟!. هذا أمر مستبعد جدا، ولكنني أحس رغم ذلك بشيءغريب اتجاهه...آه...تذكرت الآن الرسالة الغريبة التي توصلت بها سابقا، واللوحة التي ترافقها. أيمكن أن تكون هنالك علاقة ما تجمع بينهم وبين الذي حدث؟! لكن من يريد أن يعبث بحياة ضائعة لشخص مثلي؟!. لا أظن ذلك فأنا إنسان مسالم بطبعي وليس لدي أعداء يتربصون بي الدوائر، وإن وجدوا أصلا فلما استهدفوا

بيل بالذات؟؟ هل هي إشارة بالمرموز لبداية حرب مفتوحة؟ أم أنها مجرد مصادفة لاغير؟!. وإن كان هدفهم هو التخلص مني ومحاولة تصفيتي، فهذا شيء سهل جدا، فهم لن يجدوا أدنى صعوبة في القيام بذلك، فأنا طريدة سهلة المنال. سكت لوهلة تم تابع حديثه قائلا: هل قتل بيل بتلك الطريقة البشعة يعد تهديدا بالنسبة لي؟! ولنفترض ذلك جدلا، فلما يهددونني أنا بالذات وليس بحوزتي أي شيء يمكنهم السعي ورائه؟!. لقد تعبت حقا وأنهكني طول التفكير بدون جدوى، فكل شيء أتوصل إليه يفضي بدوره إلى اللاشيء. ربما هي مجرد شكوك لا أساس لها من الصحة!! أم هي مخيلتي الخصبة تشطح بي بعيدا في عوالم لا وجود لها في الواقع!!. لا أحد يسعى لقتلي وليس هنالك من يفكر في ذلك حتى. هذه مجرد ظنون زائفة والاستسلام لها لن يعيد بيل إلى الحياة. آسف حقا يا صديقي الوفي فقد دفعت ثمنا لذنب لم تقترفه قط، ولست موقنا البتة إن كنت أنا هو السبب المباشر أم لا؟! كن موقنا بأني سأسعى جاهدا لمعرفة الفاعل وأجعله يدفع الثمن غاليا جدا.

توقف للحظة متنهدا، ثم قال: لكيلا أعود إلى نقطة البداية من جديد، وجب علي ترتيب أفكاري أولا، إذ يجب أن أستفسر سام عن اللوحة والرسالة، ثم لابد من أن أراقب تحركات هورتن، فتواجده في ذلك الوقت بالذات لا أظنه محض مصادفة لعينة. وما إن أكمل جملته حتى رمق جثة كلبه الممدة في الحديقة للمرة الأخيرة من نافذة غرفته ثم تابع حديثه: يعز علي فراقك حقا، لأني لا أطيق فكرة غيابك عني، ولكن سأقوم بدفنك قرب قبر عائلتي فلطالما اعتبرتك فردا منها. وحينما انتهى من كلامه انتفض واقفا، وتابع خطواته بثبات كأنه فارس أعلن الحرب على المجهول.

****

عندما ترى الكل جلساء الزمن، والمشاكل حبيسة الرؤوس، وتصبح خطوب الزمن هي لذة الحياة، عندها فقط نتساءل من المتذوق وكيف؟!. حينما تختل الموازين، ويقارن اللبيب بغيره، وتعلل المواقف بنقيضها، حينها يصبح من غير الممكن بأن نجد ثقة ما تكسو المستقبل توهمنا بأن شهد الأيام عسل لابد من تذوقه. وضع بذلك نقطة الختام لبوحه، ثم بعدها وضع القلم فوق الورقة، اتكأ على كرسيه ومد بصره بعيدا جدا محاولا اختراق حدود المكان والنظر إلى ماوراء العوالم اللامتناهية. ثم همس في داخله متسائلا: منذ متى كان الإحساس لغة يحتضنها البياض لتقرأها العيون؟ أو بضع أسطر كلمات يحصرها المعنى فتنتهي بانتهائه؟. كانت هذه التساؤلات تعبث بذهن إميل خالقة بذلك نقاشا مع الذات. بعدها كالعادة عم الهدوء والصمت جو المكان، واستمر ذلك لبرهة من الزمن، لكن صوت النادل كسر هذا الصمت المعتاد.

– آسف سيدي على التأخير.

صوب نظره نحو النادل ثم قال: لا عليك. نطق بكلمتين لا غير، ثم عاد إلى عالمه الخاص. شارد الذهن، مشتت الفكر كعادته، حملت عيناه ونظراته الكثير، فقد تحملت من العبء ما لا يمكن للصخر تحمله. في تلك اللحظة بالذات قرر الاتصال بسام، آملا بأن يكون هو المرسل المجهول، وأن يكون موت بيل مجرد حادث عابر لا غير. أوهم نفسه بضع دقائق أنه مجرد مزاح من صديقه وأن الأمور فقط اختلطت عليه، لكنه بعد حوار أجراه مع سام دام من الوقت طويلا، تأكد بأن ظنونه أخطأت المرسل ككل مرة.

– سام..إذ لم تكن أنت المرسل فمن يكون إذا؟ إني أحتاج بالفعل إلى مساعدتك، فلدي الكثير لأحكيه لك بخصوص اللوحة والرسالة.

– حسنا إميل، سنلتقي في منزلك بعد ساعة.

ابتسم إميل قائلا:

– لا تتأخر كالعادة...واحترم موعدنا أرجوك.

– آه..على سذاجتك، ألم أقل لك دائما أن الساعة سجن...قل لي بالله عليك، لماذا دائما نقيد ذواتنا بوقت، بأجل، بمدة وبزمن..ونحن نعلم أن الحياة ما هي إلا قطار مسرع نحو الموت، لذا يجب أن نعيشها بدون قيد أو شرط..أليس كذلك يا..؟...

قاطعه إميل قائلا:

– حسنا...حسنا فهمت، لا يهم متى ستأتي بل المهم الآن هو أن تأتي.

– انتظر قليلا لا تقم بإغلاق الخط فلدي اقتراح.

– حسنا هات ما عندك، فأنا كلي آذان صاغية.

– أتتذكر المكان الذي التقينا فيه مؤخرا أنا وأنت وليليانا؟.

– نعم أتذكره جيدا..فلنلتقي بعد ساعة هناك..أليس كذلك؟.

– حسنا...لك ذلك.

وضع الهاتف في مكانه ثم أخذ رشفة من فنجان القهوة، وبعدها قال بصوت خافت: من يجرؤ على العبث معي؟ سؤال يعيد نفسه بلا جواب. عبارة استفهامية وحيدة نطق بها إلى أن تلاشى وجودها وانصهر خلف ذات كئيبة مثقلة بالهموم والمآسي، ذات تعودت دوما الانضباط واحترام الوقت لتجعل منه شخصا دائم النظر إلى ساعته. ودونما سابق إنذار، رن هاتفه مستحوذا على صمت المقهى. حمل هاتفه على الفور، ورد بعدها قائلا:

– مرحبا من المتكلم؟.

– لايهم من أنا، المهم أن هناك هدية تنتظرك بالقرب من سيارتك، تذكر أن اللعبة بيني وبينك، وأي متطفل سيلقى حتفه.

قطع الاتصال ووضع الهاتف على الطاولة مصدوما، واستمر صدى الجملة الأخيرة التي سمعها على الهاتف يرن في أذنيه، وصار يكرر ما سمعه للتو مستغربا، مندهشا، هامسا في سره: هدية ولعبة بيني وبينك؟ ربما هذا هو المرسل المجهول. نهض مسرعا ونادى النادل ليدفع ثمن الفاتورة. خرج راكضا نحو سيارته السوداء وراح يتفحصها بعينيه بدقة. وما إن رفع رأسه إلى أعلى حتى لاحظ فوقها لوحة وبالقرب منها رسالة. حمل اللوحة بيده اليسرى فسقط منها قرص موسيقى كتب في أسفل جانبه الأيمن بخط عريض أبيض اللون: "الأحد القاتم"، وفي الأعلى خطت عبارة معكوسة باللون الأسود لم يستطع قراءتها إلا من خلال انعكاس صورتها على مرآة سيارته، ليجد:"الحياة بدون ذكاء ومعاناة مجرد عبث"، أما اللوحة فاحتوت درجا ثلاثي الأبعاد مع وجود نفس البصمة الدموية.

الأحد القاتم
Gloomy Sunday

التفت إميل هنا وهناك باحثا بلهفة عن المرسل، فلم يلمح أي شخص يثير شكوكه. أدار اللوحة عله يجد شيئا ما يشبع فضوله، وما وجد سوى عبارات مبهمة لم يستوعب معناها، وكأنها فلسفة حياة. كانت كلمات غامضة تثير في قارئها جملة من التساؤلات، سافر في سحب المعنى وبدأ يقرئها بعينيه اللتان بدت جليا عليهما صعوبة الفهم. إذ كان فحواها لغزا محيرا يحمل جملة من التأويلات: "الحياة مليئة بالألوان، ولكل لون معنى يستدل به. ما رأيك أن تعيش في عالم أحادي اللون، مطموس المعالم، وذلك من أجل توقعات أفضل. درب خيالك على احترام الواقع ورفض مصطلح الضعف ومفهوم الانهيار. لاحق الفرص، فالقارب الراسي في مأمن من العواصف، لكن ليس في مأمن من الطحالب، وإذا خفت المجازفة فلا تستسلم للانتظار، لأن القدر خادم والموت سيده. ومن أجل ضمان الفرص فكر مليا بالمعنى الخفي للوحات قبل تفكيرك باللوحة ذاتها، فقد يكون في العمق ما لا يمكن نبشه بالرؤية فما خفي كان أعظم. توقع دائما حدوث المستحيل واستبعد الممكن، فكم من سنبلة قمح ماتت ظنا منها أن المنجل يريد معانقتها".

حينما انتهى من القراءة ركب سيارته واتجه مسرعا لملاقاة سام، عله يجد عنده ما يجيب على أسئلته المحيرة.

****

رمى ببصره بعيدا عن الأفق المحشو بالصمت وهو يستمع إلى صوت الأمواج وهي تنادي الصخور التعيسة من بعيد. رأى السحب تزدحم في مسيرها باحثة عن مخرج، كان حينها

وحيدا حبيس معضلته. صاحب نفسه باحثا عن أشياء تائهة، وتساؤلات أطبقت على نفسه وأثقلت كاهله. في خضم هذا التفكير المضني تداخل التأويل وتناسلت الفرضيات بشكل رهيب. حاول جاهدا تخطي عتبة صمته باحثا في ثناياه عله يجد الضوضاء الهادئة والشجن السعيد، ثم انسلخ فجأة من هذا الصمت وذلك بنثره لحديث كسر الملل المميت إذ قال متسائلا: أين تكمن سعادة هذا الإبداع؟! هل في سكون أمواجه أم في اضطرابه؟! هل تكمن سعادة الكائن في بقائه أم في فنائه؟! وأين تختفي السعادة وسط هذه التناقضات؟! هل في وضح النهار أم تحت أجنحة الليل؟!. حينما انتهى إميل من هرطقته، التقط سام حصى صغيرة من على الأرض وزج بها في البحر ثم أجابه:

– حينما تقاس الأشياء بغيرها يسلب منها مفهومها، فتتجرد من المعنى لتشكل مدلول النقص بكل حيثياته. السعادة سفر وليست وجهة، ولكي نعيشها بتفاصيلها وجب سبر أغوار أعماقنا حتى يتأتى لنا إبصار الظلمة فينا، ففي اكتشافها نرسم طريقا آخر إلى النور. أدار إميل وجهه نحو الجهة الأخرى وكأنه غير مقتنع بما قاله، في المقابل أطال سام النظر في اللوحة متأملا إياها، ليقاطع إميل شروده قائلا:

– عشر دقائق تقريبا وأنت شارد الذهن في اللوحة دون أن تفحص قرص الموسيقى أيضا. هل هناك شيء ما في اللوحة أثار انتباهك ليشغل تفكيرك لهذه الدرجة؟.

– في اللوحة معاني تفهم دونما كلمات، فهذا الدرج الذي يغوص في أعماق اللوحة ليس له بداية وينتهي إلى اللامكان وكأنه يقودك إلى المجهول، أو ربما يدعوك إلى المغامرة، فهي الوحيدة التي لا نتكهن بما يحدث فيها.

رد إميل متلهفا:

– هل هنالك في اللوحة ما يدعو للخوف؟.

تردد سام قليلا في الإجابة ثم أكمل قائلا:

– ليس فقط في اللوحة يا صديقي بل ما خط ورائها أيضا. فهذه العبارات الغامضة تحمل ألف معنى. صاحب الرسالة المجهول يدعوك للتركيز في اللوحة، فهي العالم الأحادي اللون الذي يريدك أن تعيش فيه...

قاطعه إميل قائلا:

– أجل فهمت...فقد كرر ذلك غير ما مرة. لكن لما قال: "درب خيالك على احترام الواقع"؟!.

– ربما يقصد بذلك عدم استهانتك بما يحدث؟ لكن..

– لكن ماذا؟!

رد سام مستغربا:

– "لاحق الفرص"...يعني أن في كل ما يحدث هناك فرصة ما..

قاطعه إميل قائلا:

– أيقصد فرصة اكتشاف هوية هذا المريض؟!.

– ممكن، أو ربما فرصة نجاتك، أو فرصة أخرى أخطأتها أو ستدركها لاحقا. فجمع كلمة فرص أتيح لها ألف معنى وأنت مرغم على عدم ضياعك لهاته لأن...ثم سكت.

قاطعه إميل:

– لأن ماذا؟..

– لأن حياتك في خطر يا إميل، ولكي تنجو يجب ضمان هذه الفرص من خلال كشف ما تقصده اللوحة، فهذا فعلا ما يريده...

قاطعه إميل ساخرا:

– ههه...أهذا فعلا مايريده مني؟!...آه...القاتل المجهول...لوحات غامضة...رسائل مشفرة...ألا ترى بأن الأمر برمته مجرد لعبة حمقاء نسجها خيال شخص مريض ليخلق نوعا من المرح الثقيل!!.

أجابه سام بكل هدوء:

– نعم إنها لعبة ولكن ليس للمرح، فهي على ما أظن لعبة تتطلب منك الذكاء من أجل البقاء، وأي خطأ سيختصر المسافة بينك وبين الموت. ندك في اللعبة شخص أحمق يعبث بك وبمن حولك، أمعن جيدا هنا: "فكم من سنبلة قمح ماتت ظنا منها أن المنجل يريد معانقتها".

قال إميل مندهشا وكأنما عاد إلى جادة الصواب:

– ما الذي تقصده بمن حولي؟ هل ليليانا في خطر الآن؟! أظن بأن السنبلة ماهي إلا ليليانا والمنجل هو القاتل، أليس كذلك؟!.

– عبارة تختصر البعدين: من الممكن أن تكون هي المقصودة ومن المحتمل أن يكون القاتل شخص قريب منك، شخص تثق به. إنهاعبارة تدل على الغدر. ربما هذا ما يعنيه. فهل تشك في تصرفات أحد ما يا إميل؟.

رد إميل متثاقلا:

– يوم حادثة بيل وجدت هورتن واقفا خلفي دون أن يحدث صوتا ما. كان موقفا غريبا، أثارإحساس الشك في داخلي، ولكن هو مجرد إحساس، فهورتن لم يبدي تصرفا سيئا منذ أن عرفته.

– وهنا يطرح ألف تساؤل...كيف يجعلك شخص تثق به وفي نفس الوقت يبدي تصرفا يثير الريبة في نفسك؟.

– ما الذي تقصده؟ أتريدني أن أشك في كل من حولي؟.

– هذا بالضبط ما أقصده يا صديقي، ليس هورتن فقط في دائرة الشك، بل كل من قابلتهم في حياتك.

أجاب إميل متلهفا وكأنما تذكر شيئا:

– آه تذكرت...يوم الأحد مع الساعة الواحدة ليلا، قابلت شخصا غريب الأطوار، حقا لمسة غرابة تطاله، وحيد الخصائص، قليل القرائن، خفي المعاني، صعب التجسيد. كان متفردا في كل شيء، فريد المطلب وفريد الحديث أيضا. رجل مسن، هدفه الوحيد شراء اللوحات جميعها، لكني تحفظت على ذلك، إلا أنه لازال ملحا على شرائها دفعة واحدة وبثمن خيالي لا يمكنك تصديقه.

سأله سام مستغربا:

– لما يصر على شرائها منك كلها؟.

رد إميل ملوحا برأسه:

– وأنا أيضا لم أعرف السبب فكلما لاحظته هو إعجابه الكبير بها.

هز سام رأسه وأجاب:

– إعجابه بها ليس كافيا لما قدمه من عرض مغري. ها هو شخص آخر نضيفه إلى لائحتك السوداء.

ضحك إميل ساخرا ثم قال:

– لائحة سوداء...هههه لقد بدأت اللعبة يا سام؟.

رد سام وملامحه أصبحت أكثر صرامة من ذي قبل، وبكل حزم وجدية أردف قائلا:

– نعم يا إميل اللعبة بدأت منذ موت صديقك بيل، لقد آن الأوان أن تأخذ الأمر بجد، فأنت لم تعد بصدد مشكلة عادية، لأنك للأسف لست في ورطة فقط بل أنت الورطة ذاتها.

عند سماع كلمة بيل تسمر إميل كأنه تجمد في مكانه، ولم يعد يسمع ما يقوله سام. ظل شاردا للحظات حتى قاطعه:

– ما بك يا إميل؟! أتمنى أن لا يكون تحذيري قد أخافك لهذه الدرجة و...

قاطعه إميل وملامحه تملؤها الدهشة قائلا:

– تذكرت...أجل...تذكرت يا سام، أظن بأنني أنا السبب...نعم بالتأكيد أنا السبب في هذا...

قاطعه سام وهو يحاول تهدئته من الحالة الهستيرية التي اعترته قائلا:

– هدئ من روعك يا إميل ما الذي تذكرته؟ وماذا تعني بأنك السبب؟.

أجابه إميل وعينيه تملؤهما الدموع:

– ولكن كيف غاب ذلك عن ذهني؟ لقد توصلت برسالة ولوحة سابقتين وظننتهما هديتا عيد ميلادي، وحينما قرأت الرسالة وجدتها غامضة ومريبة، لدرجة أنني ظننتها مقلبا تعده لي

أنت وليليانا، لذلك لم أعرها اهتماما. لكن عندما اتصلت بكما أيقنت بأن ظنوني الحمقاء أخطأت المرسل مجددا ثم...

– ثم ماذا؟...وأين هما الآن؟!.

أجاب إميل منهارا:

– لقد تركتهما في المنزل، لم أكن أظن أن الأمر جدي لهذه الدرجة...

قاطعه سام مستفسرا:

– ولما كنت تظن بأنك السبب في الأمر؟.

أجاب إميل بصوت حزين:

– بعد توصلي بالرسالة واللوحة ساعات قليلة قتل بيل بتلك الطريقة البشعة. لذا فأنا السبب...لو تصرفت على محمل الجد، لما راح بيل ضحية استهتاري.

– ركز معي قليلا يا إميل: أتذكر شيئا من الرسالة أو اللوحة؟ هيا ركز فهذا ضروري.

قاطعه إميل:

– لا أتذكر شيئا، فأنا لم أعرها اهتماما، ثم توقف فجأة وتابع حديثه قائلا: مهلا هناك عبارة أثارت في إحساسا ما وهي: "قبل أن تخلد إلى النوم احمي الأقرب إلى قلبك".

– فهمت ما يقصده، إنه بيل، لقد كان يدعوك لحمايته، إذ لا يوجد من هو أقرب إلى قلبك مثل بيل، وهنا فهمت معنى لاحق الفرص في الرسالة الثانية، أنت أضعت فرصة إنقاذ بيل ولازالت فرص أخرى لن ندري من هو ضحيتها القادم!!. الأمر معقد جدا يا إميل، لا أنت ولا أنا لنا القدرة في الوقوف أمام المجهول، خاصة إن كان ما أقصده صحيحا، فإن هذا

المرسل الغامض يعرف عنك الكثير، وإلا كيف أمكنه أن يعرف بأن بيل غال على قلبك لهذه الدرجة.

– ما الذي تقصده؟.

– نحن أمام قاتل أحمق ومريض ولا يمزح بتهديداته، لم يعد الأمر بيدنا ما يستدعي تدخل الشرطة، لهذا وجب إبلاغهم بكلما حصل معك حتى يمكن إنقاذ ما تبقى وإيقاف هذا المعتوه.

– معك حق يا سام...ولكن أتظن أن الشرطة ستحميني بناءا على شكوك وتهديدات؟. بل يجب إيجاد دليل ملموس يستدعي تحرك الشرطة وإيقاف هذه المهزلة.

– معك حق يا إميل، لكن لا يجب أن تنسى بأن الحيطة والحذر أساس النجاة. لذا سآخذ معي هذه اللوحة وقرص الموسيقى لعلي أجد مفتاح اللغز المفقود، وعند أي بصيص نور سأتصل بك ليلا.

– وأنا كذلك إذا استنتجت شيئا ما بخصوص اللوحة الأولى والرسالة سأبلغك.

– نظر سام إلى قرص الموسيقى ثم قال ببطء: "الحياة بدون ذكاء ومعاناة مجرد عبث". ربما يقصد أن الحياة ليست سوى ألم وذكاء. لكن لما خطت فوق القرص بطريقة معكوسة؟. وما سر هذه الأغنية "الأحد القاتم"، لم أسمع بها قط؟.

كان إميل يبادره الكلام ويخوض معه في الحديث، تبادلا الأدوار فكل منهما يسأل ويجيب لكن تنقلب الأمور فيصبح سام المستمع الوحيد. نظر إميل إلى ما وراء أمواج البحر. كانت نظرات مثقلة بالحنين والذكريات، ثم أجابه قائلا:

– لا زالت كلماتها تتردد في مسمعي إلى الآن "الأحد القاتم"...أغنية كانت السبب في انتحار والدتي في مثل هذا اليوم، لذا بعدها قررت البحث عن الأغنية لما فيها من كآبة وحزن تؤدي بك إلى الدركات السفلى من الاكتئاب، فهي ولادة عسيرة من رحم المعاناة. فقد دارت حولها الكثير من القصص والإشاعات، حتى تحولت إلى أسطورة، إذ كلما زادت شهرتها إلا وازداد عدد ضحاياها، فأصبحت تعرف باسم "أغنية الانتحار الهنغارية". وللأسف جسدت بالملموس سيرة شاب يهودي عاش اليتم والفقر في حياته، ولازمه النحس كظله إلى أن أودى به إلى النهاية دونما عودة. بحيث تمت تصفية والديه على يد النازية الألمان في الحرب العالمية وهو لازال حديث السن، ليصبح بذلك نزيلا للملاجئ ودور الأيتام. هكذا بدأ الإبحار بزورقه الصغير في بحر الحياة اللجي بأمواجه المتلاطمة كالجبال، وواجه قسوة الظروف وقلة ذات اليد وشظف العيش، لكن رغم شدة العواصف إلا أن يم تغييره الايجابي احتضن بشطه مرساته أخيرا، آملا له بتذوق معنى السعادة ولو لمرة، بحيث تعرف على فتاة بعثت فيه الأمل والرغبة في العيش، فقد كانت بمثابة الشباك الذي أنار له ظلمة غرفته، إلا أن هذه الفرحة بدورها لم يكتب لها الاستمرار بحيث أقبرت في مهدها، ليستفيق ذات يوم على صدمة أعادته إلى عالم التعاسة من جديد. فقد وجد خطيبته منتحرة موضوعة في تابوت يوم أحد. أوجاع الملحن الشاب تحولت إلى صرخة موسيقية مشبعة بالبؤس. إذ أخرج أغنية بعنوان الأحد القاتم إلى الوجود فجسد فيها ما يعتصره من ألم وما يعيشه من حزن دفين. فكانت هذه الأغنية الوحيدة من بين جميع ألحانه التي لاقت انتشار كبيرا وعرفت نجاحا باهرا، إلا أن فرحته بالنجاح هاته لم تغمره طويلا، إذ أقبرت هي الأخرى مثلها مثل سابقاتها، وذلك لأنها كانت سببا في انتحار العديد ممن استمعوا إليها، فأحس حين ذاك بتأنيب الضمير، لأن أغنيته

كانت سببا في إزهاق العديد من الأرواح. ليقف بعدها منهارا في خضم هذا النجاح الدامي. الشيء الوحيد الذي حقق له الشهرة والمجد كان بحد ذاته سببا في حصد المزيد من الأرواح. ألم تجرعه حتى وهو في عز نجاحه لينتهى به المطاف ملقى من طابق شقته ببودابست. لكن الأقدار شاءت بأن يظل حيا وينقل إلى المستشفى. وبالرغم من نجاته، زحف مساء ذاك اليوم من سريره وهو يبكي متوسلا الموت، وبكل ما تبقى له من قوة أجهز على نفسه فيما بقي له من رمق، فقد خنق الملحن المسمى "راجوشرش" نفسه بسلك كهربائي ووضع حدا لحياته الكئيبة، وهو يناهز بذلك تسع وستون سنة من عمره...طأطأ إميل رأسه أرضا، ودمعة سالت منه سهوا، ثم تابع قائلا: في ذاك الأحد ربما شعرت والدتي بعبثية الحياة مثل صاحب هذه الأغنية المشؤومة. وأدركت مخطئة أن الموت أفضل وأرحم من تحمل آلامها وويلاتها، لكن عندما بدأت بلفظ آخر أنفاسها تذكرتني أنا وجدي وبيل. أيقنت تماما أنها غادرت لحظات سعادة قبل أن تبدأ، ماتت منتحرة صباح ذاك الأحد الحزين وحسرة دامعة تبلل خدها، وكأنها غادرت هذا العالم مكرهة فأنا متأكد أنها أرادت فقط قتل آلامها بدل نفسها.

بعد أن أنهى إميل كلامه، صرخ سام بأعلى صوته قائلا:

– واااو ما هذه الأغنية!!. إنها سم فتاك لما حصدته من أرواح. ولكن الغريب في الأمر هو والدتك، كيف استمعت لهذه الأغنية وهي في تلك الحالة؟!.

أجابه إميل بثقة:

– لا تستغرب الأمر كثيرا، لقد تركت حقيبة يدها وهاتفها وجميع أشيائها على مقربة منها. ظننت أن ما تركته سيجعلها تتمسك بي أكثر فلا تتركنني. لكن كنت مخطئا، فهي لم تتذكر شيئا غير آلامها، ولم تستمع إلا لهذه الأغنية.

رد سام بصوت منكسر:

– لا تقسوعلى نفسك كثيرا، فالأغنية...

قاطعه إميل قائلا:

– الأغنية ليست سما في حد ذاته، بل هي كأس يحتضن سموم مأساتنا فنتجرعه دفعة واحدة. لكن ما يثير الاستغراب يا سام هو انتحار والدتي في نفس اليوم الذي تحمله الأغنية الأحد القاتم؟.

باغته سام بسؤال مفاجئ وكأنه تذكر شيئا:

– ألم أقل لك يا إميل بأن مرسل اللوحة والرسالة هو على معرفة وثيقة بك، فهو على علم تام بما حدث لوالدتك، وما عبارة الأحد القاتم الموجودة على قرص الموسيقى إلا تلميح منه على ذلك.

– معك حق...كيف لم ألحظ هذا؟. مهلا لحظة...حتى بيل قتل في نفس اليوم. أيمكن أن تكون هناك علاقة بينهما؟ أم أن الأمر لا يعدو كونه مصادفة لعينة؟.

– في جميع الأحوال وجب التحقق من أي شيء مهما كان، فالشك هو طريقنا إلى الحقيقة.

التفت إميل إلى صديقه باسما، ووضع يده على كتفه ثم تابع كلامه قائلا:

– شكرا لك يا سام على مساعدتك، ماذا كنت سأفعله لولاك.

أجابه سام متحمسا:

– لا تقلق يا صديقي فكل شيء سيكون على ما يرام.

– أتمنى ذلك...أراك غدا، وانتبه لنفسك جيدا.

– حسنا إلى اللقاء، غدا بإذن الله.

التاسعة والنصف ليلا. حل الليل وارتمى بحلته السوداء مداعبا أرجاء الأفق. في هذا الوقت بالذات فتح إميل باب منزله وإحساس شجن خالجه، حزن عميق راوده. أغلق الباب بقوة وذكريات بيل لازالت تعشش داخل الأعماق. اتجه بخطوات وئيدة نحو غرفته وهو يشتهي سباتا ينسيه ما مر به. كانت غرفة نومه تضم مكتبا، خزانة خشبية، سريرا وبجانبه مصباح صغير ذو ضوء خافت. رمى بهاتفه ليأخذ مكانا له فوق مكتبه. ارتمى على سريره، وبعدها ارتدى الحزن وابتسم بشجن. هائم في سجن أحداث يصعب الخلاص منها. ذات كئيبة تمكث في صمت وسكون دائمين، يرافقانه أينما حل وارتحل. وما إن شعر بأن ذاته بدأت تضعف وأنه سار إلى اللانهاية، حتى تناول حبة منوم سافرت به إلى عالم الأحلام.

غط في نوم عميق آملا في حلم يزيل قناع بشاعة الواقع المعاش. لم يمضي وقت قصير، حتى شاء رنين هاتفه أن يعيده إلى عالمه. فتح جفنيه بصعوبة، ومد يده اليسرى إلى مكتبه، لكن أنامله لم تستطع حتى لمس هاتفه. نهض بصعوبة، حمل الهاتف ثم نظر إليه ليجد المتصل صديقه سام. في تلك اللحظة غمرته فرحة عارمة مفعمة بأمل في سماع خبر يزيحه عن عالم الشؤم ذاك. بادر بالحديث قائلا: – أهلا سام هل من جديد؟!.

بنبرات صوت لم تكن غريبة عن مسمعه، أثارت في أوصاله فزعا، وجعلت من إميل مرتعشا، ساكنا، مستمعا لما يقال:

– صديقك سام قد غادر الحياة الآن، لقد قام بقطع شريانه حتى الموت. المسكين لفظ آخر أنفاسه بعد لقائنا الأول والأخير. حذرتك أن اللعبة بيني وبينك وأي متطفل سيلقى حتفه.

صرخ إميل بأعلى صوته:

– من أنت ومن تكون؟! وما الجدوى بتحويل حياتي إلى جحيم؟!.

– لما الانفعال يا سيدي؟! ما أنا إلا مجرد كيان يبحث عن الحقيقة في كنف الحياة، في خبرة الشيوخ، في غور الماضي وتوقعات المستقبل. أنا أسطورة بشرية، أنا صلة وصل بين النجاة والهلاك. أنا حقا خليط من التناقضات. فمن أكون يا ترى؟!. تابع كلامه ساخرا: سؤالك عني أتفه من جوابي هذا. أحقا تنتظر مني أن أقول لك من أكون؟! أم تراك تريد حياة سهلة؟! ابق إذا كأريكة في المنزل فأنا آت لإنهاء الأمر...

قاطعه إميل قائلا:

– إن كان ما تفوهت به عن سام قد حدث فعلا، فتأكد أني سأرميك في ظلمة السجن حتى تتعفن عظامك.

– لن تفيدك الشرطة في شيء، فلا دليل ملموس تبديه. كن واقعيا أكثر وذلك بعدم هروبك من السرداب، لأن الموت ينتظرك في حاشيتي الممر. كن دائما المهاجم لا المدافع، لتضمن كفة النجاة. اذهب الآن إلى المطبخ فهناك هدية من نوع خاص تنتظرك على الرف الأول، ستزيد اللعبة نوعا من الحماس والتشويق. إياك أن تنسى، فكلما زادت ثرثرتك إلا وتساقطت الضحايا تباعا.

قطع الخط، لم يستطع بتاتا تصديق ما قيل أو ما حدث. لكن من خلال تسارع خطواته نحو المطبخ بدا جليا أنه تجرع من كوب التصديق رشفة جعلته يرتاب مما سمع، وما تذوقه صار واقعا يعيشه. أنزل اللوحة من على الرف ليلمح كرة من الكريستال، شجرة ونظارة، والبصمة الدموية المعهودة، فقد باتت شيئا عاديا بالنسبة إليه. لم يستطع الفهم ثم أدار اللوحة

آملا في كلمات تبدد الغموض الملموس. ليجد حينها: "أقتل مخاوفك قبل أن تتصيد ملاكك الآدمي. افعل شيئا قبل فوات الأوان، فزجاج الحفلات على وشك الانكسار. كل شيء من حولك الآن يستلزم منك أن تكتفي بأمرين لا ثالث لهما: التحليل واللعب بذكاء، لأن الرقم الثالث سيضع حياتك على المحك، ليكون بذلك الرقم الفاصل بين الحافة والقمة. إذا فكر جيدا قبل لمس كرة البلياردو، فالتخطيط السيء للتغلب على مشكلة ما قد يفضي بك إلى الهلاك".

بعد أن أنهى القراءة، ظل ساكنا للحظات، لم يستطع التحرك ولا حتى تحريك لسانه. جمع قواه ليحرك عينيه ذات اليمين وذات الشمال، أعلى وأسفل. انطفأ فتيل شمعة التفكير، والحيرة اتقد لهيبها. ولحسن حظه انفك منها بعبارة لمعت في ذاكرته أخبره بها صديقه سام سابقا، وهي الشك بأي كان. بدأ يستفسر في داخله: "وضعت الهدية في المطبخ ما يعني أن خائنا ما يخدمه قريب مني، لن أن الخائن هو ذاته القاتل؟. هل أنا أعيش كابوسا أم واقع مر يتملكني؟ وإلى أي وجهة تقودني شياطين الإنس؟ فهل من مفر؟ حقا أما من شيء يرد سلام الأيادي الشيطانية التي تربطني بعالم الخضوع؟ أما من شيء يغير الوضع ويعطي الحياة طابعها الاحتفالي؟ فهل من بديل أم أنها حقا نهاية قصتي؟!.

راودته تساؤلات وانتابه شعور غريب، كدخان يكتم الأنفاس. حينها أحست نفسه بضرورة التواصل، لكن أجابها العقل بكلمة التعارض، وفي الأخير اختار لنفسه منهجا، طريق تجاهل يسير عليه، فلازمه الحلم ورافقه الأمل، يحلل ويفترض، يبرهن وينتقد، يجيب على السؤال بسؤال ينتظر جوابا. فهم أشياء وغابت عنه أخرى، فهو غير دار بغيابها ولا بحضورها، وكلما استطاع فهمه واستيعابه في لحظة تفكير نطق به معلنا له حرية تكسير الهدوء قائلا: ما أخافه الآن هو الموت الذي طالت يده أحبتي واحدا تلو الآخر، وأظن أن ما أخافه يطارد عزيزا على قلبي لكونه أسماه ملاك، فمن الضحية التالية إذا؟. سكت لوهلة وهو يفكر في عشوائية الكلمات وفوضى المعاني، وفجأة لمح عبارة نفذ بها من متاهة التأويلات، حينها صاح مندفعا بصوت عال وكأنما وجد ضالته المنشودة: أعتقد أن هذه الجملة هي المفتاح الوحيد للغز، وليليانا هي الشخص الوحيد الذي يثير انتباهها زجاج الكريستال، وتعشق حضور وإقامة الحفلات. ربما يلمح إلى ليليانا، وإذا كان ظني في محله فحياتها حقا في خطر الآن. نظر إلى

ساعته اليدوية ليجد الحادية عشر ليلا، بعدها قرر الاتصال بها فورا، وما إن سمع صوتها حتى تنفس الصعداء، ثم حاول جاهدا إقناعها بأن يلتقيا بعد نصف ساعة في المطار.

الحادية عشر والنصف ليلا، ذرفت السماء دمعا مخادعا، فأزال قبعته المستديرة ولامست وجه بعض من قطرات المطر الخجول. هدوء ساد الحاضرين في ليل صيفي دافئ وممطر في آن معا. منظر شاعري يخاطب الروح ويسمو بها إلى عالم من الترانيم والابتهال.

نظرت ليليانا إلى السماء بعدما انتهت أمطارها الخفيفة الهامسة في آذان العاشقين، أما إميل بوجهه المكفهرأدار رأسه بصعوبة وكأن التشنج أخذ يعبث بجهة واحدة من رقبته دون غيرها، وذلك بسبب تهربه من أعين ليليانا التي بادرته مستغربة:

– مابك؟ أهناك خطب ما؟ منظرك يشبه جنازة خرساء.

التفت إميل نحوها، وحينما قرر إخبارها تقهقر خوفا عليها وبادر بإجابته مناورا متغزلا بعينيها:

– أخاف سحر العيون أن تكسر زجاج صمتي، لتكشف بوحي، فتبصر ما في القلب يغلي، ما أخافه صدقا هو اعترافي...

– أجابته ليليانا مبتسمة: واااو لم أعرف أنك شاعر أيضا يا إميل؟.

ابتسامة ليليانا كانت كفيلة بنشر الدفء في داخله، فقد اطمأن أخيرا بتبدد الشك في نفس ليليانا، لذا تابع سرد أحاسيس كانت سجينة في داخله:

– صرت كذلك أمام سواد عينيك الآسر. صمت قليلا ثم تابع بعدها...أوليس الحب حياتا تنهينا؟.

طأطأت ليليانا رأسها ثم همست:

– بل هوما يبقينا أحياءا.

بعدها ظلا ينظران إلى بعضهما مبتسمين في عالم زهري يرنو بهما. مرت لحظات صمت ليقطعه فجأة صوت إميل وهو يمسك بيد ليليانا، وفي عينيه خوف ممزوج بحب، وهو لا يعرف إن كان في قربه منها ما يؤديها أو في ابتعاده عنها. ظلت مشاعره حائرة وغامضة لهذا لم يكن يدري ما يود قوله لها، فقد كان كلاما صادقا يعكس معنى ما يحس به، إذ قال بصوت هادئ:

– ليتنا التقينا منذ البداية، ليتنا اختصرنا مسافات الطريق، لتقاسمنا العلقم ولعشنا الأمرّين، أقمنا من شدة الفرح عرسين، ولاختزلنا معا عمرا من المعاناة والألم، فقط معا يضمحل الوجود بوجودنا جنبا إلى جنب، ونكمل الدرب في منتصف الحكاية.

وما إن أنهى كلماته الرقيقة حتى نظرت إليه بابتسامة وبصوت هادئ أجابته:

– أنت طيب القلب يا إميل، منذ عرفتك وأنا أدرك أنك شخص صادق وواضح، لكن لم أكن أظن أنك تكن لي مثل هذه المشاعر الصادقة اتجاهي! إلا أنني أستغرب لما عبرت عنها بتعاسة وكأننا سنفترق للأبد؟!.

كان إميل غارقا في سعادة من نوع خاص، إلا أن العبارة الأخيرة التي تلفظت بها ليليانا كانت كفيلة بانتزاعه مما هو فيه، ورميه أرضا إلى واقعه المأساوي، حينها ترك يد ليليانا وصرخ:

– التعاسة الحقيقية هي التي سنعيشها الآن مع أحمق يطاردنا حتى الموت.

فجأة تغيرت ملامح ليليانا، حينما رأت تحول إميل المفاجئ وكأنه يخفي أمرا سيئا، وسارعت بسؤاله:

– ما قصدك؟.

– لا أستطيع البوح، كيلا أعرض حياتك للخطر، ولا التلميح حتى، وكل ما علي قوله الآن هو أن نبتعد أنا وأنت من هنا قدر الإمكان وقبل فوات الأوان، لذا حجزت لنا تذكرتين، وذلك للابتعاد عن التعاسة وإكمال طريقنا معا في حضن حياة أجمل.

– ما بكما؟ هورتن أيضا تحدث معي بكلمات غامضة، وها أنت ذا تتصرف مثله.

سألها إميل باندهاش:

– هل التقيت هورتن؟! متى؟! وماذا قال لك؟!.

– بعد أن تحدث معي على الهاتف، في تلك اللحظة غادر هورتن. لقد التقينا صدفة، كان متعبا كثيرا ذو وجه شاحب، يكرر كلمات مبهمة، أسأله فيجيب على غير السؤال، وما استوعبته مما يتمتم به هو إحساس ندم يراوده.

– ما العبارات التي كان ينطق بها؟.

– كان يقول: لما سمحت لنفسي الآثمة بأن تحيى من جديد؟ لما وافقت على فعل شيء كهذا؟ هل بوسعي إصلاح ما فات؟ ليليانا أنا متعب جدا، وينتابني شعور بالانتحار. أستحق الموت ألف مرة بسبب ما اقترفته...بعدها وضعت ليليانا يدها على خدها، نظرت إلى إميل ثم تابعت حديثها قائلة: لم أستوعب جيدا ما يقول، حاولت مرارا وتكرارا، لكنه حاول ما أمكن إخفاء الأمر عني، وما استطعت فهمه فقط هو أنه في مشكلة أو ما شابه، وحينما علم باتصالك بي، غادر مسرعا دون أن ينتظر كلمة مني مفادها إلى اللقاء.

سكت إميل، وظل يخمن في ما حكته ليليانا، شاردا بتفكيره يعيد شريط الأحداث ويحلل، بعد مدة من الزمن لم ينطق بكلمة. نظرت ليليانا إلى عينيه مليا مستفسرة ما به، ثم لوحت بيدها أمام وجهه قائلة:

– إييه فيما تفكر؟.

سؤال ليليانا جعل إميل يغفو لحظة من كوابيس اليقظة تلك، ثم بدأ يتحدث بصوت عال معبرا بكلمات لم تفهمها ليليانا. كان بالنسبة لها كمن يهلوس، فقد صار تفكيره كلمات لها صدى مسموع في عمق المكان قائلا:

– لقد كان سام محقا، نعم إنما أعيشه الآن من دراما، هي من تأليف أقرب الناس إلي. أجل فما سمعته من ليليانا يؤكد ذلك، فمن البديهي أن ما يراوده من ندم هو بسبب ما اقترفه في حق بيل وصديقي سام، وليس من المستبعد أن يكون عينه هو صاحب اللوحات والرسائل. لكن لما يفعل هذا؟! وإن كان كذلك فلما لم يتخلص من ليليانا عندما كانت تتحدث إليه؟! أيمكن أن يكون اتصالي في الوقت المناسب هو من أفسد خطته هاته المرة؟!. سكت قليلا، ثم نظر إلى ليليانا بعينين جاحظتين وتابع: أيعقل أن يكون حدسي في محله؟! لكن كيف حصل على مفاتيح منزلي؟! اااه تذكرت...تذكرت ذاك اليوم وتلك الصدفة المصطنعة، وكيف وجدته ورائي في الحديقة، أجل تمثيله البارع جعلني أصدق أن باب الحديقة ترك مفتوحا بسهو مني، لكن لما كل هذا؟! لما سام وبيل؟!...

كان إميل يظن أنه يهمس في داخله، ولم يكن يعلم أن ليليانا سمعت معظم حديثه. وضعت يدها على كتفه وهي تربت عليه محاولة إيقاظه من الهلوسة التي انتابته فجأة، ثم قالت باندهاش:

– ماالذي تقوله؟ أجننت؟.

حينها عاد إميل إلى وعيه وكله يقين أن ليليانا سمعت مناجاته مع نفسه، التفت ممسكا ذراعيها بقوة ثم قال:

– إنه أمر يطول شرحه، لكن ما يمكنني قوله هو أنني فهمت كل شيء، فسام لم يجرم في حق نفسه بل هورتن من قتله، وهو السبب أيضا في موت بيل ونحن خطته التالية، لذا علينا الذهاب من هنا في أسرع وقت ممكن فحياتنا على المحك.

حينها صرخت ليليانا مصدومة:

– ماذا تقول هل سام مات؟!.

صرخة ليليانا لم تجد لها جوابا مقنعا، فقبل أن يجيبها إميل سمعت صوتا قاطع حوارهما:

– لقد جئنا في الوقت المناسب ولم نخطئ التوقيت، مجرم مثلك يخطط للهروب إذا.

التفت إميل ورائه ليجد رجلي شرطة، لم يفهم ما يحدث حوله، ثم قال لأحدهما متسائلا:

– عفوا سيدي أتتحدث إلي؟.

– التفت الشرطي إلى صديقه، ثم قال ساخرا:

– هل تتحدث معه أنت؟.

فأجابه زميله مستهزئا:

– آه يا لبراءة هذا المجرم. أمسك ذراع إميل وسحبه بقوة، ثم تابع قائلا:

– أنت رهن الاعتقال، لأنك متهم في قضية قتل رجل مسن. من الأفضل لك أن تلتزم الصمت، فكل ما تقوله سيسجل ضدك.

ظل إميل صامتا دون أن ينطق بأي كلمة تفند ما قاله الشرطي، فهو لم يستوعب الأمر بعد، إذ لم يحرك ساكنا للدفاع عن نفسه. سحبه الشرطي وليليانا تستفسر الأمر، رافضة اعتقاله معلنة دفاعها عنه بأن في الأمر لبس فهم أو مكيدة خطت له في الخفاء. رغم توسلات ليليانا، إميل

وجد نفسه أمام عميد الشرطة آذار. كان شخصا صارما قويا البنية، أسمر البشرة ذا صوت حاد، وبنظرة عابسة قال له:

– من الأفضل لك أن تظل صامتا حتى يحضر محاميك.

أجابه إميل غاضبا:

– أرجوك أجبني ما الذي أفعله هنا؟.

– لقد حذرتك سابقا أن لا تتفوه بكلمة لكيلا تحسب ضدك.

صرخ إميل قائلا:

– أنا لست مذنبا كي أحتاج محاميا يدافع عني. ما أحتاجه حقا أن تجبني أرجوك عن سؤالي.

هز العميد رأسه قائلا:

– حسنا لقد وفرت علينا الكثير من الوقت. هيا إذا أجبني، أين كنت الساعة الحادية عشر ليلا هذا اليوم؟.

أجابه إميل مستغربا:

– كنت في المنزل.

– أيوجد لديك ما يثبت ذلك؟.

– لما؟! فأنا لا أحتاج لما يثبت كلامي.

أجابه السيد آذار مستهزئا:

– لا أنت مخطئ هذه المرة، فأنت في أشد الحاجة لما يثبت وجودك في المنزل، لأنك لست في وضع تتبجح فيه.

التفت إميل إلى عميد الشرطة غاضبا:

– أيمكنك أن توضح لي ما يحدث هنا!! لما يتم استجوابي واعتقالي كمجرم؟.

– أنت ممثل بارع سيد إميل، تظاهرك بالغباء لن يفيدك، إذا أردت أن تخرج من هنا حرا، أجب بجواب وليس بسؤال أفهمت؟.

لم يكن لإميل خيار آخر غير مجاراة كلام العميد، رغم أنه كان تائها في بحر من الأسئلة هو نفسه لم يجد لها جوابا شافيا، إلا أنه حاول جاهدا أن يركز في الاستجواب عله يستوعب الأمر. تابع آذار كلامه:

– قل لي، الرسم فن جميل ومربح، هو يسلب أذهاننا فيسحرنا بلوحاته ثم يجعلنا رهائن طائعين لجشع صاحبها. أليس كذلك؟!.

أجابه إميل بكل ثقة:

– الفن إبداع راق، وهو يتجاوز أهواءنا ورغباتنا، هو أنقى من الندى ففيه نعبر بصدق، وحينها لا يمكن أحد أن يقيمه بروحه أو بأمواله حتى.

ضحك آذار بأعلى صوته ساخرا:

– هههه، أسمعت يا كاسانو؟ إنه يقول بأن فنه لا يقيمه المال ولا الأرواح، هههه...

التفت إليه الضابط كاسانو، كان شخصا طويلا، ذا قوام متزن، و بشرة شقراء، تميل إلى لون سنابل القمح الناضج في فصل الصيف، أما عيناه فكانت زرقا وتين مثل سماء صافية، تتلألآن لمعانا كلما نظرت إليهما، أما شعره فكان ذا سواد حالك قصير، يبدو بارزا نوعا ما من تحت قبعته المستديرة. كان واقفا بجانب إميل ومتكئا على الخزانة متابعا التحقيق بتركيز تام. كان يرمق إميل بنظرات غريبة، وكأنما رآه في مكان ما، أو يعرفه منذ زمن بعيد، أو ربما هو مجرد إحساس غريب خالجه، منذ أن التقى إميل في مكتب التحقيق. ظلت نظراته الحادة تتابع

ما يحدث بصمت وكأنه يعيد ما يقال بصيغة تحليلية في ذهنه، لهذا لم يكترث لكلام العميد الذي تابع استهزائه:

– إذا ما رأيك سيد إميل بالصفقة التي عقدتها مع السيد ميشيل، والتي أدرت عليك أموالا طائلة مقابل بيعك جميع لوحاتك؟.

أجاب إميل بثقته المعتادة:

– لقد ظلت مجرد صفقة، فأنا تحفظت على بيع اللوحات جميعها، لأن هناك لوحات يستحيل بيعها مهما كلف الأمر، وهذا ما وضحته للسيد ميشيل أيضا.

– أووووه...أأنت متأكد؟! إذا كيف تفسر عقد البيع الموجود في شقة السيد ميشيل وبتوقيعك الخاص؟.

أجاب إميل مستغربا كعادته:

– عقد بيع! هذا مستحيل أنا لم أوقع على أي عقد بيع!.

غضب اعترى ملامح العميد، وصرخ بأعلى صوته:

– كفى إنكارا، هذا لن يفيدك في شيء، مهما أنكرت دليلا إلا وهناك آخر يدينك. توقف فجأة ثم اقترب من إميل، ونظر إليه وتابع قائلا: أسمع كلمة بكلمة، صوت ما يحدثني بالرغم من وجودي وحيدا بالغرفة، وهمس يتملكني مجتاحا داخلي بل ويحيط بي المكان، هو ليس كابوسا في نومي ولا واقعا يمكن تفسيره، هو شبح ما يطاردني. ربما جاء ليحيي ماضي الأسود، أو ليوقف حاضري المنير. لا أعرف من أين أتى! لكن ما أعرفه هو أنه سيقودني إلى دهاليز الجنون مجددا. أو ربما إلى الانتحار. لما يا إميل؟ لما تفعل بي هذا؟. حينما انتهى العميد من هذه الكلمات قال: هذا آخر ما تلفظ به ميشيل قبل موته.

رد إميل منفعلا:

– ماذا تقصد؟! أنا الذي قتلته؟! هذا مستحيل، أنا لم أفعل ذلك، هذه الكلمات التافهة هي دليل إدانتك لي؟!.

– لا ليست وحدها بل حتى عقد البيع المبرم بينكما دليل ينضاف إلى سابقيه، يسحبك مجددا إلى عمق المستنقع الذي صنعته.

ظل إميل مندهشا وهو ينظر إلى عقد البيع الذي يحمل توقيعه، لقد حرك في نفسه تساؤلات هو في غنى عنها، وأخذ يناجي نفسه: أيعقل أن يكون المجرم الذي يلاحقني هو من قتل ميشيل؟!. مهلا...أيمكن أن يكون هورتن هو من فعل هذا ويريد أن يلصق التهمة بي؟! وكيف تم توقيع العقد وأنا لم أوافق على الصفقة؟! كيف حدث هذا؟ حقا لم أعد أفهم أي شيء؟ ما الذي علي فعله الآن؟ إذا أخبرتهم بأن هورتن هو الفاعل حقا فلن يصدقوني، وأثناء بحثهم عنه من أجل استجوابه سيكون قد أنهى حياة ليليانا، وإن لم أخبرهم، سيكون مصيري هنا أسوأ. وبينما هو غارق في تساؤلاته، قاطعه العميد قائلا:

– أجب، لماذا أنت أخرس الآن؟ ألم تجد كذبة تنقذك مما أنت فيه؟ ما الذي تود قوله قبل أن آمر بسجنك الآن؟.

– صدقني لست أنا الفاعل؟ أنتم تحققون مع الشخص الخطأ، فالمجرم الحقيقي هو الآن حر طليق يعبث بحياتي وبحياة الآخرين، هو من حاك لي هذا الفخ اللعين.

– أنت تلمح إلى شخص ما؟ إذا قل لنا من هو هذا الشخص يا إميل؟ أكيد أنك تعرفه؟ فكلامك يثبت ذلك.

أجاب إميل متلعثما:

– معرفته تكمن في فك أحجيات لوحاته، ظاهرها رسم أخاذ وباطنها قفل غامض، إن لم تكتشف مفتاحه قبل الأوان صار كفنا يلف روحك وأرواح أحبتك دونما رحمة.

قاطعه العميد ضاحكا:

– واو ما هذا؟ أهذه مسرحية تود تأليفها؟ أم لوحة بريئة تحاول رسمها بأكاذيبك؟ لقد سئمت تفاهتك، انتهى التحقيق.

حينها صرخ إميل قائلا:

– ما هذا إلا غباء أواستغباء منك للزج بي في السجن. فما أنا عليه الآن ليس استجوابا منطقيا، بل هو كره دفين يخدم مصلحة شخص ما، أليس كذلك يا..

قاطع العميد كلامه وطلب من الحارس أخذه إلى الزنزانة، ووضعه تحت الحراسة النظرية بتهمة قتل المسن ميشيل.

بعدها ساد صمت غريب، ليقاطعه صوت الضابط كاسانو، وهو ينظر إلى عميد الشرطة آذار قائلا:

– عذرا سيدي أظنك لست على صواب هذه المرة، لا توجد أدلة كافية لاعتقاله، فلا المفكرة ولا عقد البيع هما سببان كافيان لإدانته. أضف إلى أننا لازلنا ننتظر تحليل رفع البصمات وكذا التأكد من صحة الإمضاء. وبينما كاسانو يوضح للعميد وجهة نظره، إذ به يقول:

– هذه ليست إلا الحراسة النظرية أظنها إجراءا عاديا، ثم لا تنسى أن إميل هو الوحيد المتهم الآن في هذه الجريمة، فما نملكه لا تعتبر أدلة كافية، إلا أنها لا تشير إلا لشخص واحد هو إميل. (نظر العميد إلى كاسانو بنظرات كلها ريبة وشك ثم تابع حديثه مستفسرا): أو تشك في شخص آخر غيره سيد كاسانو؟!.

– لا، ليس هذا ما أقصده؟.

– ما تقصده هو أنك متعاطف مع المتهم. أنت ضابط شرطة رائع وذكي أيضا، ما ينذر بأن لك مستقبلا باهرا إذ أنت سيطرت على مشاعرك. فكم من مجرم ذا مظهر بريء تقوى شوكته كلما زاد تعاطفك معه. اقترب آذار من كاسانو وربت على كتفه، ثم تابع قائلا: لاتنسى يا كاسانو، مهنتنا ليست عملا عاديا، إنها دائرة مجردة من المشاعر ولا تفتأ تنتهي حتى تبدأ بالشك من جديد. وليس هذا فقط بل أي خطأ صغير سيخل بمجرى التحقيق فيطمس الحقيقة التي نسعى جاهدين للوصول إليها.

حين أنهى كلامه، أجابه كاسانو بابتسامة ساخرة:

– تتحدث عن المشاعر..ههه..ألا تضم هذه المشاعر كرها دفينا؟ أو حقدا قديما؟.

تغيرت ملامح وجه آذار، ونظر إلى كاسانو نظرة حادة، ثم قال بعد ذلك:

– إلى ماذا تلمح؟ أتقصد أن هذه فرصتي؟.

أجاب كاسانو بكل ثقة:

– لا تنكر أن الثأر القديم كلهيب خافت نظنه انطفأ، لكنه في حقيقة الأمرهادئ ينتظر فقط هبة ريح تجعله يصحو ليحرق كلما حوله.

سكت العميد لبرهة، ثم أخرج سيجارة، واتجه إلى مكتبه، جلس ثم أشعلها وأخذ يدخن وهو ينظر أمامه، وفجأة أدار رأسه نحو كاسانو قائلا:

– لازلت أتذكر ذاك اليوم، موت والدي كان بسبب جشع والد هذا المعتوه. أفلست شركة والدي، آنذاك طلب يد المساعدة من توبايس، صديقه المقرب، وذلك باقتراض مبلغ منه ليسد به ديون الشركة قبل أن يتفاقم الأمر ويصل إلى القضاء. أعطاه توبايس المال ويا ليته لم

يفعل ذلك، كانت أموالا مزيفة وبحكم ثقة أبي به، حول المبلغ إلى الدائنين دون أن يتأكد منه. بعدها تم سجنه بتهمة التزوير، كما أن الديون أيضا زادت من مدة سجنه، ما جعل والدي يفارق الحياة بعد ثلاث سنوات من حبسه، فقد توفي بسبب ذبحة صدرية، هو لم يصدق ما حدث، خيانة صديقه وسمعته التي صارت على المحك. توقف للحظة متنهدا ثم تابع وهو يدخن سيجارته ببطء: لا أخفيك سرا أنني كرهت هذه العائلة كرها شديدا، ولو كانت هناك فرصة سانحة للانتقام لفعلت ذلك دونما تردد، لكن صدقني فتصرفي هذا نابع من حنكتي المهنية لا غير، إميل ليس بريئا كما يبدو الأمر عليه، لازلت أتذكر وجه توبايس ونظراته البريئة، إميل لا يختلف كثيرا عنه، فهو يشبهه تماما، إنسان يخفي ذئبا مفترسا.

– لكن سيدي، ضميرنا المهني يقتضي عزل الأمور عن بعضها، فلا يمكن الحكم على شخص من خلال ماضيه...

قاطعه السيد آذار قائلا:

– اعلم أن قانون العدالة أو ما نسميه نحن بمبدأ كارما، هو مرآة أفعالنا، فما نواجهه في الحياة ليس وليد الصدفة، بل هو فعل ورد فعل، سبب ونتيجة، سلف ودين...أفهمت؟.

أجابه كاسانو بعد صمت طويل:

– أعلم هذا، هو قانون يسري على الجميع. ومهما بالغت في إخفاء الأمر إلا وعينيك تفضح ثأرك الواهم، لذا لا تطبق قانونا أنت أول من يحاول خرقه. أعد حساباتك في ما يخص فكرة الانتقام تلك، فمن تشبث بالفراغ، سيسقط حتما إلى الهاوية. لا أنكر أنك رئيسي في العمل، لكن هذا لا يعني بأن أخضع لأوامرك، مادامت تختلف كليا عما أؤمن به، لذا سأبحث في القضية بما أراه أنا مناسبا، لا بما تأمره أنت.

حينها قام آذار من على كرسيه فورا، وأطفآ سيجارته التي أوشكت على الاحتراق كليا، ثم نظر إلى كاسانو بعينين ذابلتين قائلا له:

– لك ما تريد يا كاسانو، لكن تأكد أن نتيجة التحقيق ستكون واحدة، مهما تعددت زوايا رؤيتنا أو اختلفت آرائنا. لوالد هذا المتهم دين سيسدده ابنه، فهما وجهان لعملة واحدة. وما أنا اليوم إلا إنسان يحاول تحقيق العدالة، ليعيد الحق الضائع ويكشف المستور عن جريمة تسترت عنها السنين.

حينها نهض كاسانو بدوره من على كرسيه، وبنظرة حادة، ولغة ملئها التحدي، أردف قائلا:

– لا يمكن الحديث عن حق ضائع إن لم تكن هناك جريمة بالأساس، فخلف الحجاب ليست هناك جريمة تختبئ، بل شفقة ملتحمة برابطة دموية جعلتك أعمى عن فهم عمق القضية. جميعنا نعلم ما حدث فلا داعي لتذكيرك، لكن لا بأس مادام ذلك قد يوقظك مما أنت فيه. توقف قليلا عن كلامه ثم أخرج من جيبه قطعة حلوى قضم منها قليلا، ثم تابع كلامه: كان السيد جوهان تاجر مخدرات، رئيس عصابة ذات أنشطة متنوعة ومشبوهة، وأمام الجميع هو رجل أعمال، أما عن موته فهو لم يكن بسبب القصة التي سمعتها قبل قليل عن سمعته وخيانة صديقه، بل كان تحت ضغوطات وتهديدات العصابة المتواصلة بقتله، والتي تعدت ذلك إلى محاولات استهدفته في الزنزانة، إلا أنه لحسن حظه باءت كلها بالفشل. والدك في تلك اللحظة لم يستطع المقاومة ولا التحمل، خوفه الدائم ولحظات الترقب وحذره اللامتناهي من موت وشيك، جعله يصاب بأزمة قلبية حادة نقل على إثرها إلى المستشفى، ولأن الحظ حليفه نجا منها بأعجوبة، لكن للأسف لم يطل الأمر كثيرا، فبعد أيام قليلة نجحت العصابة في مسعاها إذ تم تصفيته في المستشفى عينه بطريقة فظيعة. حاولت الشرطة

جاهدة اعتقال المذنبين لكن دون جدوى، ليتم غلق ملف القضية بموت والدك في المستشفى بذبحة صدرية. هذا ما تم تسريبه للرأي العام والصحافة، لكن أنا وأنت نعلم حقيقة ما جرى، نعلم جيدا ما كان عليه والدك وسبب وفاته، ولم يكن والد إميل إلا شماعة تعلق عليها ما فات. لا أعلم السبب؟ فكل ما أعلمه هو محاولة إقناعك لي بكذبة أنت نفسك لم تقتنع بها.

ضحك العميد آذار بصوت عال، وصاحب قهقهاته تصفيق، ثم قال:

– كم أنت موهوب يا كاسانو...لك خيال خصب، لكن أظن أن ذاكرتك خانتك هذه المرة، لقد نسيت أن والد إميل السيد توبايس هو فرد في عصابة الشياطين الحمر، العصابة الدولية المختصة في تهريب الأسلحة، المعروفة بتصفية ضحاياها داخل زنزاناتهم، هي تستطيع الوصول إليك حتى في أحلامك، وهذا دليل آخر على أن توبايس هو المسؤول عن مقتل والدي. لا يهمني إن اقتنعت أم لا، فهذه هي الحقيقة شئت أم أبيت، فمهما فتحت الملفات القديمة ومهما حاولت التحقيق من أي زاوية شئت فلن تصل إلا إلى ما وصلت إليه أنا.

فجأة، رنين هاتف قاطع حوارهما، نظر إليه العميد وما إن رأى المتصل حتى أطفا هاتفه، ثم نظر إلى كاسانو مبديا لامبالاته، لكن ظلت عيناه تحملان علامات الاستغراب والدهشة، وما إن حاول متابعة كلامه، حتى أعقب الاتصال رنة قصيرة في هاتفه من جديد، توحي على توصله برسالة هاتفية وما إن أنهى قراءتها حتى تغير لون وجهه إلى أصفر شاحب كما الموتى، كأنه تلقى خبرا مريبا. ظل صامتا للحظات، ثم قال بنظرة مضطربة :

– ربما معك حق هذه المرة يا كاسانو.

استغرب كاسانومن كلامه قائلا:

– ما الذي تقصده بكلامك هذا؟!.

– أعتقد أنني ارتكبت خطأ فادحا. لن أدع ثأر الماضي يسلبني عدالة الحاضر، فكما قلت لا يمكن اعتقال إميل نظرا لعدم كفاية القرائن، هذا ما كنت تود أن أفهمه قبل قليل، أليس كذلك؟. كان صوته هادئا ونبراته منكسرة وكأنه ينفذ أمرا يكره حدوثه.

نظر كاسانو إلى العميد نظرة حادة وبابتسامة أجاب:

– أعجبني هذا التغيير المفاجئ، هذا هو الحل الصائب والتفكير السليم. إذا لا داعي لمكوثه طويلا في الزنزانة أليس كذالك؟.

– ليس الصبح ببعيد يا كاسانو. سيصادف خروجه ظهور نتائج التحليل المخبري وأظنها ستكون جاهزة غدا زهاء السابعة صباحا.

نظر إليه كاسانو مستغربا وبابتسامة خبيثة أجاب:

– هكذا إذا السابعة صباحا!!. ثم قال في نفسه: أنا أعرفك جيدا سيد آذار، أنت شخص يصعب إقناعك، فكيف غيرت رأيك بهذه السهولة؟ أكيد بأن هناك خطب ما؟ ولكي أعرف ما يحدث هنا، وجب التحرك سريعا ومباشرة التحقيق والانطلاق من حيث انتهيت.

حينها أخرج آذار سيجارة أخرى وأشعلها، ثم نظر إلى كاسانو وراح يردد في نفسه:

– أعلم جيدا أنك لم تقتنع بما قلت، وأنك فقط تساير ما يحدث لتكشف ما يجري؟!

وكيف؟!. فأنا أعرفك جيدا يا كاسانو. كيف يخفى التلميذ عن المعلم؟. لكن ما أتمناه حقا هو أن تبقى بعيدا جدا عن هذا العالم القذر، لأني لا أريد أن أراك تتأذى. بعدما أنهى مناجاته مع نفسه، أطفا سيجارته، ثم جلس على كرسيه منهارا، ومن تم نظر إلى النافذة وغاص في تفكير عميق.

خرج كاسانو من العمل، وهو سابح بفكره، وخطواته ضائعة، وعيناه شاردتان، وكأنه تائه يبحث عن بوابة الزمن ليعيد شظايا روحه المفقودة. ظل على هذه الحال لساعات إلى أن رن هاتفه بصوت أعاده إلى دنياه، في مكان لم يستطع تحديد معالمه، فهو لم يعرف إلى أين ساقته قدماه، لأنه ببساطة سار مغمض العينين خلف أفكاره. نظر إلى هاتفه وأخذ يقرؤها بتمعن. كانت مجرد كلمات بسيطة، يتلخص فحواها في دعوة خجولة من صديق قديم، في الحانة المتواجدة قرب الشارع الرئيسي. تأملها كاسانو مترددا الذهاب، ثم استدار في مشيته وكأنه قرر تغيير فوضى الذات بفوضى المكان.

لم تمضي إلا دقائق معدودة، حتى وجد كاسانو نفسه أمام الحانة، تغيرت ملامحه قليلا إذ ظل مترددا في الدخول. فالحانة ليست من الأماكن المفضلة لديه، فهي تعاكس تماما طبيعته الهادئة وشخصيته المنطوية، غير أن للصداقة كلمة تعني له الكثير، وبفضلها قرر الدخول. كانت نظراته آنذاك تجولان في أرجاء المكان، باحثة عن ضالته، وفي لمح البصر رآه جالسا في زاوية منعزلا، متكئا على طاولة مليئة بالمشروبات. اقترب منه ببطء، وحياه بصوت هادئ:

– أهلا هورتن لم أرك منذ زمن . نظر صوب عينيه وتابع كلماته مسترسلا: أولم تكتفي بما احتسيت من مشروب؟! أم أن الألم لم يزل بعد؟!.

رفع هورتن رأسه، وما إن لمح كاسانو ماثلا أمامه حتى تهللت أسارير وجهه الحزينة ليحييه قائلا:

– أهلا كاسانو وأخيرا جئت؟! كنت متأكدا من قدومك، أنت شخص لا يخذل معنى الصداقة، ولا يتخلف أبدا عن اللقاء.

تبسم كاسانو من قوله، ثم سحب الكرسي بيده، جلس وهو ينظر أمامه مستغربا من كثرة المشروبات الموضوعة على الطاولة، حينها نظر إليه هورتن مقاطعا نظرات الاستغراب تلك، قائلا:

– ما دامت الحياة تجبرني على العودة متألما، فأنا مستعد لأستمتع بألمي. أحيانا السعادة ليست فرحا، وإنما هي فن التعامل مع الأحزان. سكت قليلا، ثم أخذ قنينة وأراد أن يسكب كأسا لكاسانو، إلا أن هذا الأخير أوقفه قائلا:

– لا، شكرا...فأنا لست ممن يواجهون مشاكلهم هربا من الواقع يا صديقي، فمواجهة أخطائنا هي أولى خطوات الندم، والندم هو نهاية النفق المظلم وبداية الضياء..

قاطعه هورتن مبتسما:

– هههههه...حياتي برمتها نفق مظلم لا نهاية له، وكلما ألمح نورا يشع من بعيد، إلا واختفى لأعود مختبئا تحت جناح الظلام. أنا لست كما تظن يا كاسانو، أبدا لست كذلك، أنا مجرم. أو تعلم وقع هذه الكلمة على من يسمعها؟.

نظر كاسانو إليه مليا وأجاب:

– لا داعي لتذكرني بماض انتهى ولن يعود. أعلم يقينا ما الذي فعلته، صحيح أنك أجرمت في حق زوجتك، لكنك لم تقصد أبدا أدية ابنك. أنا لا أدافع عنك، لكنك دفعت ثمن ذلك من حياة أضعتها بين قضبان السجن.

قاطعه هورتن صائحا:

– أنت تسرد ما فعلت كأنها مجرد قصة نستمع إليها ونمضي. أنت لم تعش وقائع ما حدث.

بعدها سكت للحظة، تنهد، ثم أخذ رشفة من كأسه وتابع: لازلت أذكر ذاك اليوم، لم يكن لي

دخل كافي لأعيل أسرتي، اضطررت للعمل مع أناس يتاجرون في الممنوعات، وذلك لمدة ليست بالطويلة. لكن لا أخفيك سرا تحسنت أحوالنا كثيرا، اشترينا منزلا فخما وسيارة رائعة، لم تعد هناك مشاكل بيني وبين زوجتي، لكن هذه الفرحة لم تدم طويلا. ذات ليلة اكتشفت زوجتي بالصدفة البضاعة التي خبأتها في القبو. كشفت أكاذيبي التي طالما تفننت في ابتكارها مبعدا إياها عن المصدر الحقيقي للمال. لقد تشاجرت معي وحاولت إبلاغ الشرطة، حاولت جاهدا منعها، وفي آخر لحظة استطعت إسكاتها، نعم وهذه المرة للأبد. لقد خنقتها بكلتا يدي هاتين، لم أكن أقصد قتلها، لكن لم أستطع التحكم في أعصابي فحدث ما حدث. جريمتي لم تقف عند هذا الحد، خلف الباب كان ابني الصغير ذو التسع سنوات قد شاهد كل شيء. ركض خائفا، مسرعا محاولا نزول الدرج. حاولت اللحاق به لأفهمه ما حدث، وحينما أمسكت به راح يصرخ بأعلى صوته، سحبته بقوة لكنه دفعني بالمقابل، ما جعله يتعثر وينزلق من أعلى الدرج، ليرتطم رأسه بقضيب حديدي كان موضوعا أسفل الدرج. توقف لوهلة عن الكلام، وأعقب ذلك دمعة سالت من عينيه، مسحها بيده اليمنى وتابع: أتعرف يا كاسانو، في تلك اللحظة أحسست بشيء ما في داخلي تغير أو رحل إلى الأبد، أو ربما تملكني، لا أعرف ما هو بالتحديد. وما أيقنته في تلك اللحظة هو أن الشيطان النائم في داخلي استيقظ أخيرا وأصبح يلتهم ما تبقى من آدميتي. هل تعرف ما أنا عليه الآن يا كاسانو؟.

سكت كاسانو قليلا، ثم أجاب:

– لكن أنا لم أرى الشيطان في تلك الليلة. ما رأيته هو إنسان شهم ضحى بحياته من أجل إنقاذ شخص لا يعرفه، رغم أنني فقدت وعيي جزئيا، لأنني تلقيت ضربة على الرأس من

طرف أولئك الثلاثة الذين اعترضوا سبيلي، إلا أنني تابعت ما يحدث بوعي تام. لقد رأيتك وأنت تدافع عني غير مكترث بحياتك، بل وتلقيت رصاصة في كتفك بدلا مني...

ضحك هورتن مقاطعا كاسانو:

– نعم وفي المقابل أجهزت على حياة أحدهم.

– كنت مضطرا لفعل ذلك، فأنت في موقف دفاع عن النفس، ولو لم تقم بذلك لما لاذ الآخرون بالفرار. هذه الحادثة كانت سببا في لقائنا لنصبح صديقين بعدها، فأنا لن أنسى أبدا أنك قمت بإنقاذ حياتي، فلولا تدخلك لما كنت الآن أمامك.

أجابه هورتن بنصف ابتسامة:

– وأنا أيضا ممتن لك يا كاسانو، فلولا دفاعك وشهادتك لي، لقضيت ما تبقى من حياتي في السجن.

أجاب كاسانو وهو ممسك بيد هورتن، وسحب الكأس من يده وأعاده إلى مكانه، وكأنه يحاول منعه من الشرب:

– لا داعي لشكري فأنا لم أفعل أي شيء يستوجب الثناء، فأنت لم تكن مذنبا، فلا داعي إلى كل هذا الشجن. أولائك المجرمون نالوا ما يستحقون، فهم حاولوا تهديدي وتغير مجرى التحقيق، بل أكثر من ذلك هم حاولوا قتلي، لذلك من الطبيعي أن ينتهي بهم الأمر إلى مآل إليه. اسمع يا هورتن حين التقيتك تلك الليلة، رأيت فيك ضميرا حيا ينبض في داخلك، وإنسانية منقطعة النظير. فلا تدع قطار الماضي يطحن كل جميل فيك. إن كل شيء يبدأ فقط بفكرة صالحة، فلا تلون حياتك بالسواد، واجعلها تنطلق وتكمل المسير دون العودة إلى البداية، أنت سوف تتغير حتما إلى الأفضل تذكر هذا جيدا.

تغيرت ملامح هورتن فجأة، ورسمت على محياه لوحة حزينة يائسة، ثم قال بعد ذلك:

– البداية هي مشكلتي دائما، والتغيير كلمة أكبر من مجرد معنى نحاول دوما جاهدين فهمه.

تأوه للحظة ثم أكمل حديثه: مشكلتي ليست في ذكريات ماض بائس يلاحقني، ولا ضمير حي يجلد ذاتي المكلومة. مشكلتي أكبر من أن تفهمها، إن لم أفهمها أنا بالذات. هناك شيء ما بداخلي يسحبني خلفه كخادم مطيع، يلبي رغباته الجشعة والنهمة دونما اكتفاء. لا يهم إن قتلت دفاعا عن النفس مكرها أو مستمتعا، المهم أن يشبع هذا الوحش المتعطش بداخلي. أنا أحس به دوما معي، إنه يسحبني إليه رويدا رويدا، حتى يبتلعني في صمت. سكت قليلا، ثم تابع قوله: اسمع يا كاسانو، سأعيدها لك للمرة الثانية، أنا لست كما تظن، لن أتغير أبدا، لأنه لم يعد يفيد تغييري هذه المرة.

بعدها تغيرت ملامح كاسانو كليا، وبدت بذلك أكثر جدية، عقد حاجبيه وأصبحت نظراته أكثر حدة، ثم سأل هورتن قائلا:

– ما الذي فعلته هذه المرة؟ وأي كارثة أقحمت نفسك فيها؟ هيا أجبني؟.

بابتسامة خبيثة أجابه:

– آسف جدا...لا أستطيع إخبارك هذه المرة. لا أنكر أننا صديقين، لكن هناك مسافة تفصل بيننا، فأنت في نهاية المطاف شرطي ومحقق، لكن كل ما أستطيع إخبارك به الآن هو أنني خائن، لقد خنت اليد التي امتدت لي وانتشلتني من الفراغ الذي كنت أتخبط فيه، نعم لقد كسرت اليد التي حنت علي، وغيرت ظروفي المأساوية تلك، ليس هذا فقط، بل كنت أيضا سببا مباشرا في تعاسة هذا الشخص للأبد.

قاطعه كاسانو قائلا:

– أهذا وحسب؟.

– لا بل أفظع من ذلك بكثير، لقد أخبرتك سابقا بأنني مستعد لفعل أي شيء إن اضطررت لذلك. سمني ما شئت، لكن أكيد لن يكون شيئا جيدا، لأني مدرك تماما من أكون.

في هذه اللحظات تلقى كاسانو اتصالا من صديقه أيان، جعله يقف بعيدا عن هورتن ليجيب على هاتفه. فجأة اقترب رجل من هورتن وكأنه كان يتحين فرصة ابتعاد كاسانو ليعطيه اللوحة، ثم هم بالمغادرة مسرعا. التفت إليه هورتن متثاقلا من كثرة الشرب، لم يستطع تحديد ملامحه، حمل اللوحة وفوجئ بما وجده فيها. فقد رسم فيها وجه ميشيل، وفي الأسفل خطت صورة سكين به قطرات دم، وفي الجانب الأيمن من اللوحة طبعت بصمة يد باللون الأحمر.

jk

ظل هورتن مذهولا للحظات، وأحس حينها بتهديد محدق، وبأن أحدا ما يتربص به، ويحيك له مؤامرة دنيئة في الخفاء. أخذ يدير رأسه يمنة و يسرة باحثا عن شيء ما يوضح له ما يحدث حوله، استمر على هذا الحال حتى قاطعه اتصال هاتفي من متصل مجهول، ليجيب هورتن بلهفة:

– من المتصل؟.

كان صوت المتكلم غريبا نوعا ما، حيث أجابه بنبرة حادة:

– أهلا بك في عالمي سيد هورتن، لما تلاوين وجهك باهته؟ ربما لم تعجبك هديتي على الإطلاق؟ أو ربما لأنك نادم على قتلك العجوز ميشيل؟.

أجاب هورتن ويديه ترتعشان:

– من أنت وماذا تريد؟.

– لن يفيدك من أكون، ما يهم الآن هو أن لا تقضي ما تبقى من عمرك متواريا خلف قضبان السجن، ولكيلا يحدث هذا، عليك بأن تنفذ أوامري دونما تردد أو استفسار.

بنبرة شبه منكسرة رد هورتن:

– حسنا لك هذا، ما هي أوامرك إذا؟.

– قبل أن تعلم ما هي، تذكر أن لكل شيء حدود وجب عدم تخطيها، فلا تتذاكى كثيرا، لأن التدقيق في أتفه التفاصيل قد يودي بحياتك.

– لم أفهم ما تقصد؟ عما تتحدث؟.

– انتظر اتصالي القادم.

بعدها أغلق الخط. كان هورتن يتصبب عرقا، ووجهه شاحب جدا، وما إن لمح كاسانو قادما نحوه، حتى أدار اللوحة في الاتجاه المعاكس محاولا إخفائها، وانتفض واقفا ليهم بالخروج.

حينها التفت إليه كاسانو وعيناه ترمقان إطار اللوحة الخلفي، ثم سأله:

– ما هذا يا هورتن؟.

أجابه متلعثما:

– ليس شيئا مهما، إنها مجرد لوحة.

ظل كاسانو يرمق هورتن حتى وصل إلى باب الحانة بنظرات كلها شك وريبة، ثم صاح به:

– ابتعد عن المشاكل يا صديقي.

التفت هورتن وبابتسامة ساخرة أجاب:

– كيف ذلك؟ والمشاكل هي من تبحث عني. بعدها لوح له بيده مودعا إياه.

****

اتخذ فيتاليس مكانا منعزلا عن المجتمع الصاخب ليجد لذة في الصمت. رأى في الهدوء المهرب الوحيد والملاذ الأمثل بعيدا عن حمق الصراخ. كان الوقت ليلا، سكن الجو وساد الصمت المكان، سكت الناطق، وسكن المتحرك ونام المستيقظ، أما صاحبنا فقد أعجبه الهدوء الشامل، فسعى إلى طلبه استيقاظا. في تلك الليلة خط في مذكراته وداعا لحفيده، كان وداعا من نوع خاص، فراق مؤلم مفعم بالأمل، عبارات جلد ودعم ذا شعاع يخترق الروح ويحييها، إذ كتب فيها: "عزيزي إميل، الحياة عطر فواح إذ أنت استمتعت بما يوجد في بستانها من زهور. تظل حية مادام هناك أمل يحيى في داخلك، وسوداء مظلمة متى أغلقت عينيك.

لا أنكر بأنها علبة ألوان قد تصادف يوما ذا لونا أسود يسبب لك الأحزان، لكن هذا هو منطق الحياة، لا فرح يستمر ولاحزن يدوم. هي مركب نهتز فيه كلما تقلب فوق أمواجها. هي هكذا دوما ونحن يجب أن نتحداها فنعيشها بكل تناقضاتها. بني إميل لطالما اعتبرتك صديقا لي وأنت تدرك هذا جيدا، لكن كن صديق نفسك هذه المرة ولا تعاتبها أبدا، بل أخبرها أن تلك اللحظات ستنتهي مثلما بدأت. وإذا شعرت بالحاجة إلى من يساندك فضم يديك لبعضهما فلن تنهي الهزيمة أبدا شخصا يثق بنفسه، ولن يجد الانكسار إليها مسلكا. وتأكد دائما أن الثقة بالله أحد دروب النجاة، لذا ثق به وقف من جديد فالسقوط لا يليق بك. واعلم أن أعدائنا الحقيقيين ليسوا بشرا، بل أفكار مظلمة تغوص عميقا في عقولنا الباطنة، كوحوش غادرة تسكن أعماق المحيطات، وللانتصار عليهم وجب علينا الغوص، فبكشفها نكتشف قيمتنا الحقيقية وندرك كنه الحياة. بني مهما حدث، حاول أن تكون طيبا ساعيا للخير، لا يعرف اليأس طريقا إلى قلبه ولا تفارق الضحكة ثغره، لأني أدرك تماما أن أثر ذلك يدفعنا نحو مستقبل خال من الظلم والمعاناة، وفي النهاية تعبك وتضحيتك يهونان أمام سعادة من تحب.

لا تنسى جدك الذي يحبك ويراك صغيرا مهما كبرت".

بعدما وضع النقطة الأخيرة تاركا بصمة صمود وتفاؤل، تهاوى بعدها بجسده عن السرير لتلتقطه الأرض دونما ضجة. في هذه الأثناء كانت سيمفونية الهدوء تعزف بنغمات تعيسة، حولت في لحظات فيتاليس إلى جثة هامدة. لمحه في ذاك اليوم الحزين وهو متيقن تماما أنه صار من السكون وإلى السكون دونما عودة. وداع آخر بأسلوب مغاير لكن ذا تأثير خاص.

هذا ما نفضته رحم ذاكرته وهو قابع في زنزانته وحيد كعادته. بعض من شظايا زجاج ماضيه تناثر رويدا أمام ناظريه. ما بعد الصمت شبه ظلمة في المكان، وبعينين ذابلتين يحدق في الفراغ، ألقى بسهام العيون إلى ما وراء الأفق البعيد مخترقا حدود سقفه الضيق هائما، سابحا بمخيلته إلى ما خلف الوهم. كيان عاش الواقعين ولم يرفض أحدهما، يسير في طريقين متناقضين، إذ يقف بين الممكن واللاممكن، البين والمبهم. ذاق لذة الشجن والفرح، اعتاد الشيء شيئين، لقد جمع عيش الحياتين، وهذا ما بدد آهاته في لحظة متلاشية في الأفق. ساكن وأحداث يومه تتسارع دونما توقف، فلا يكف صراخ عقله عن الضوضاء. وحينما ضاع المعنى في غياهب الوقائع، طمأن نفسه بعبارة تفاؤل، جملة تصب في بؤرة سعادة حقة، مفادها أن كل ألم معاش ما هو إلا لحظة عابرة بين ثنايا الزمن ومجرد فاصل بين حياة بؤس وحياة نعيم. هذا ما تعلمه من جده ومن نفسه الطيبة، فلطالما اقتبس من الصخر معنى الصلابة، فهو بالرغم مما عاناه، مما مضى أو حتى بالأحرى مما سيأتي، وافق دون تفكير مسبق بسيادة الصمت على مساحة وجدانه ليكافئه هو الآخر بالإفلات من دوامة تساؤلات وتأويلات.

سكون ساد العالمين، ليتكأ إميل على الحائط واضعا يديه خلف رأسه، صوب عينيه الحزينتين نحو القضبان ليلمح حارس السجن مقتربا من باب زنزانته، جملة واحدة من الحارس جعلت إميل ينتفض من مكانه مستجيبا لنداء زيارة ليليانا له.

كان لقاءا يغمره الشوق والصمت للحظات خجولة طبعت بداية الزيارة، لتحل محلها نظرات عابرة تعبر ما يخالجهما من أسئلة مبهمة واستفسارات ضائعة وأجوبة صادقة علها تعطي معنى للوضع الذي آلت إليه الأمور. في خضم هذا كله قاطعت ليليانا الصمت السائد

بابتسامة أضفت نوعا من الراحة في قلب إميل، فقد رأت فيه ذاتا حزينة مقهورة ومتوترة، ضاق بها المكان، لولا فسحة الأمل التي بدت في قولها له:

– لا تبتئس يا إميل فلن تمكث هنا طويلا، فغدا على الساعة السابعة صباحا ستعانق الحرية من جديد، وسينتهي هذا الكابوس كما بدأ أول مرة.

ملامح غرابة تجمعت في وجه إميل كالسحب العاصفة ليجيبها:

– حقا! غدا سأخرج من هنا؟ كيف ذلك؟ أهناك شاهد ما؟ أو ظهر دليل جديد يبرئني؟!.

هزت ليليانا رأسها قائلة:

– لا هذا ولا ذاك، كلما في الأمر أنه لا يوجد دليل واضح يدينك، كلها افتراءات واتهامات لا أقل ولا أكتر، لكن..

حينها تنفس إميل الصعداء، وعلا محياه العابس ابتسامة عريضة، سرعان ما تلاشت عند سماعه كلمة لكن في حديث ليليانا له ليضيف سائلا إياها بلهفة:

– لكن ماذا؟.

– ما أخبرتني به ونحن في المطار بخصوص سام، أحقا هذا ما حدث له؟.

طأطأ إميل رأسه وتنهد قائلا:

– للأسف هذا صحيح، سام رحل كالبقية وتركنا نعيش في حزن جديد. لعنة كآبة اعتدنا طعمها ولم نعد نتألم...

قاطعته ليليانا بصوت يتملكه البكاء:

– لما أقدم على فعل شنيع كهذا؟ لما اختار لخطواته طريقا لم تكن يوما مسعاه؟.

حاول إميل أن يربت على كتفها إلا أن القضبان الحديدية كانت حاجزا منعته من مواساتها، وبصوت هادئ وحزين أجابها:

– أحيانا يجبر الإنسان على الاختيار، فلسفة معقدة لكنها تحاكي تناقضات الحياة.

نظرت ليليانا إلى إميل وظلت عيناها ثابتتان في مكانهما، كأنها تذكرت شيئا ما، ثم قالت مستغربة:

– أتعلم أن ما قلته للتو زيادة على المكان، هو موقف أعيشه الآن في الحاضر، لكن شيء ما بداخلي يجعلني أشعر بأنه موقف سبق ورأيته في الماضي، لكن كيف؟! ..متى؟! .. وأين؟!..لا أعلم؟!. شيء يصعب مع ذلك تحديد معالمه، وكأنها رؤية ضبابية أو تنبؤعرافة ضريرة، أو ربما كان حلما اختلس بعضا من الحقائق لأعيشه مرة ثانية في الواقع.

بنصف ابتسامة أجاب إميل:

– ما من شيء في الدنيا يعاد مرتين عدا الخطأ والندم. ثم نظر إلى عيني ليليانا وتابع: لا داعي للقلق مطلقا، ما ينتابك الآن هي مجرد حالة نفسيية تخلقها أحاسيس متناقضة، فلا نحدد مصدرها كوهم عابر.

تنهدت ليليانا ثم قالت:

– هكذا إذا، إنها أحاسيس مريبة تشبه تلك التي تزورنا في أحلامنا.

أجابها إميل بنبرة حزينة وكأنه لم يستطع تجاهل ما حدث :

– إذا توفرت الإمكانيات لشيء سيء أن يحدث فسوف يحدث، لأنه حسب قانون الاحتمالات، مهما كانت احتمالية حدوث الشيء ضئيلة، سواء أكان سيئا أو جيدا، فهذا يعني أنه سيحدث إذا أعطيته الوقت الكافي.

– معك حق فالوضع الحالي ينطبق عليه قانون التشاؤم الساخر. أحيانا لا يمكننا إيقاف شيء أو تجاهله مهما حاولنا ذلك، ففي النهاية لن نحصد إلا الندم والألم.

ومن دون سابق إنذار قاطع حارس السجن حوارهما قائلا:

– عذرا على المقاطعة، لكن انتهى الوقت المخصص للزيارة.

عبارة كانت كقطعة جليد أخمدت شعلة دفئ بدأت تتمرد على أحاسيس البرود واليأس الموجودة في أعماق إميل. وحين همت ليليانا بالمغادرة، رنت عبارة أشد غرابة من سابقاتها في ذهنه همهم بها في صمت "ابتسم فالغد أسوء". لم يعلم لما ولا كيف تذكرها هي بالذات؟ ربما لشعوره بالخوف مما ينتظره خارجا، القاتل المجهول الذي يلاحقه، صديقه سام الذي راح ضحية الغدر، اللوحات الغامضة، شكه في هورتن، موت بيل، خوفه على ليليانا. تساؤلات عديدة، من الفاعل؟ ولماذا؟ وهل سينجو؟. عالم الألغاز الملوث بالدماء. كل هذا البركان الخامد يتأجج داخله، ممتزجا بالظلمة والصمت المطبق داخل الزنزانة، شكلوا مجتمعين لجاما حديديا أخرس أفكار إميل، وأخفى ابتسامته وفرحته، آملا في بزوغ فجر حرية يلوح في الأفق عما قريب. اتجه نحو سرير حديدي وارتمى فوقه رافعا راية البيضاء لسلطان النوم. تعيس هو كعادته، فحتى في نومه لم يهنأ بالراحة والسكون. أحلام مريبة تسيطر عليه، وكوابيس تؤرق راحته وتخنق أنفاسه كلما حاول جاهدا أن يغمض جفنيه.

في تلك الليلة الحالكة السواد، صعد إلى السطح عازما على تنفيذ خطة الخلاص من كل ما يقيده ويقلق مضجعه. حيث بدا كل شيء شفافا وواضحا، لا خوف...لا قلق...ولا حزن. راحة غريبة جرت في عروقه مجرى الدم، تنفس بعمق وهو يقف على حافة القمة ونظر بسخرية إلى أسفل. كل شيء يبدوا صغيرا كحبة رمل، وهو عاليا، واقفا بشموخ، أرخى يديه

وانحنى بهدوء وأغمض عينيه. لم يعد يسمع سوى نبضات قلبه التي تسارعت باضطراد مع صوت الرياح الغاضبة، وفجأة أحس بجسده يتهاوى أرضا. في رحلة سقوط حر، رأى فيها شريط حياته يعرض ببطء نصب عينيه، دفئ عائلته واللحظات السعيدة التي عاشها في كنفها، مشاكساته مع أخته الصغيرة إيمي، لعبه الصبياني مع بيل في الحديقة، حكايات جده المليئة بالحكمة والأمل، سهره الطويل مع والداه أمام المدفئة، رحلاته الممتعة مع ليليانا وسام، رقصه واستمتاعه في حفلات ليليانا المتواضعة. ذكريات رائعة مرت مقتطفاتها كالبرق الخاطف، فانسابت دمعة دافئة على خده لتعكس شوقه الدفين لهذه الذكريات الغابرة، وتكشف في آن واحد عن حريق داخلي يلتهم آلامه وآماله شيئا فشيئا. وما إن اقترب من القاع حتى فتح جفنيه بصعوبة، والعرق ينساب مبللا ثيابه، وعقله مذهول لوهلة، ليستوعب بعدها هذا الكابوس المخادع، ويتأقلم مع الواقع بعد أن عاش رحلة موت تحبس الأنفاس. تأفف إميل ثم ابتسم قائلا: كلما بدت النهاية وشيكة إلا وتلاشى السراب عن نقطة البداية. بعدها وضع يديه خلف رأسه وأسند ظهره إلى الحائط، وسبحت عيناه عائمة في عالم آخر، ينتظر بفارغ الصبر حلول الصبح ليعانق أحضان الحرية

******

في عالم أعمى يتكأ على عكاز الخطيئة ويسير في درب تجتاحه الجريمة والعنف. جلس على كرسي هزاز، صوب عينيه إلى نور خافت منبعث من زجاج النافذة الذي أضاء ظلام الغرفة المتواجد فيها. استند على أفكاره الوهنة حتى لا يفقد توازنه ويغط في نوم عميق. في هذه اللحظة بالذات، نسج عالما آخر بشخصيات وأحداث ولدت من رحم فرضيات واحتمالات وتحليلات، وما إن اقترب من النهاية حتى فقد جميع بوصلاته التحليلية ليعود أدراج الرياح، لكن عبثا، فهو كيان لا يعترف بمنطق الاستسلام، لايمل ولا يتعب أبدا. وسرعان ما حرك عجلة بحثه المتواصل لكي يصل إلى هدفه المنشود. ظل كرسيه يهتز بوثيرة تتناسب اضطرادا مع الأسئلة المتناسلة في ذهنه. كل شيء بدأ اليوم كإشارة خفية تضيء هذا الوهم الغامض، هكذا ابتدأ المحقق كاسانو حواره الداخلي، وتابع تأويله قائلا: كل شيء بدأ اليوم، إذ تلقى مركز الشرطة مقتل شخصين، المسن ميشيل الذي قرر شراء جميع اللوحات المتواجدة في معرض إميل، والثاني هو صديقه المقرب سام الذي عثر عليه منتحرا، وفي نفس اليوم اعتقل إميل، حلقة الوصل بينهما. حسنا...يبدو الأمر برمته طبيعيا جدا، لكن دائما الغرابة لا تأتي إلا من الأشياء العادية طبعا. وإذا ما عدت إلى اعترافات إميل في التحقيق وجدت كثيرا من الأسئلة المبهمة. فقد أكد اليوم رفضه القاطع لبيع لوحاته ولتحفظه على جميعها، لذا لم يوقع على أي عقد بيع. في المقابل إصرار السيد ميشيل على شرائها كلها مهما كلف الثمن. حقا أمر غريب...لما يرفض إميل بيع بعضها رغم الثمن الزهيد المقدم فيها؟؟ في حين يصر ميشيل على اقتنائها كلها بمبلغ يصل عنان السماء؟؟. ما الذي تحمله هذه اللوحات حتى صار بيعها من عدمه صراعا متقدا؟! ثم أين اختفت هذه اللوحات حين عاينت الشرطة منزل ميشيل؟! وإن كان فعلا ميشيل قد اشترى هذه اللوحات فأين أخفاها؟!..

بعد هذه الأسئلة التي بعثرت أوراقه للحظة. عاد من جديد لعمق ما حدث وتابع تحليله...بين يدي الآن موقفين متناقضين تماما يضعان استنتاجاتي في مفترق طرق، إلحاح ميشيل على اقتناء اللوحات جميعها دون استثناء في المقابل تحفظ إميل على بيعه بعضها، ربما إصرار ميشيل المريب قد يدفع به إلى تزوير عقد البيع للضغط على إميل، مما دفع هذا الأخير إلى قتله. لكن لازالت نتائج مختبر الشرطة لم تظهر بعد للتأكد فعليا بأن التوقيع هو مجرد محاكاة للتوقيع الأصلي. إن تبث أن التوقيع مزيف فهنا سيفضي إلى وجود طرف ثالث في القضية يصطاد في الماء العكر. ما يثير شكوكي في وجوده هو تلك الخواطر المريبة المليئة بالقلق والمخاوف، والتي كانت آخر ما كتبه ميشيل في مفكرته. تلك الكلمات الغريبة المكتوبة بخط متقطع ورديء، توضح بالملموس بأن ميشيل كان يرتجف وهو يحاول كتابتها، كأن أحدا ما يهدده ويملي عليه في نفس الوقت ما يجب أن يكتبه. وما يثبت شكوكي حقا هو وجود هاته الاعترافات السرية في الصفحة الأخيرة للمفكرة، بمعنى أنها لم تحترم الترتيب المنطقي للصفحات. وكأنه كان مضطرا لكتابتها، لهذا لم ينتبه أين يخط هاته العبارات التي تعمد فيها ذكر اسم إميل لإلصاق التهمة به، فهو لم يترك العقد المبرم باسم إميل وميشيل عبثا، وإنما للفت انتباه الشرطة إلى اتهام واضح وصريح لإميل. ربما يكون القاتل هو من تخلص من ميشيل، ليستفيد من المبلغ واللوحات معا ما دام أنها غير متواجدة في منزل ميشيل، وفي نفس الوقت ألصق التهمة بإميل، لكيلا يعيق خطته مادام أنه غير موافق على بيع اللوحات. لكن تزوير العقد بتلك الدقة يشير إلى أن هذا الشخص قريب جدا من إميل. أيعقل أن يكون سام هو المجرم؟!. لا أنكرأن سام مر بأزمة مالية صعبة، أوشك فيها على فقدان شركته المختصة في البرمجة والإعلاميات. لذا من المحتمل أن يكون قد وافق ميشيل

على بيع اللوحات من خلال تزوير العقد في محاولة إنقاذه من الإفلاس، فربما كان الوحيد الذي علم بهذه الصفقة الخيالية لذا لم يفوت فرصة كهاته، خاصة وأنه يسهل عليه جدا تقليد الإمضاء الخاص بإميل، فهو مهندس بارع في هذا المجال، لذا لا أستبعد منه ذلك مطلقا، وحين حصول ميشيل على بغيته المنشودة تخلص من سام...مهلا...ربما علم إميل بخيانة صديقه فتخلص منه، وبعد ذلك تخلص من ميشيل واسترجع لوحاته. لكن لما ترك العقد والمفكرة؟. بعدها أخذ كاسانو نفسا عميقا وتابع قائلا: ها أنذا أعود لنقطة البداية لقد بدأت أخلط الأمور ببعضها، ما حدث لسام جريمة قتل يريد أحد ما إخفائها تحت ذريعة الانتحار، فما رأيته في منزله اليوم أثناء معاينتي للحادثة بدا لي جليا أنها جريمة قذرة. الأثاث المبعثر هنا وهناك، تلك الفوضى العارمة تدل على شجار دار بين القاتل والضحية. سام شخص قوي البنية، ليس من السهل النيل منه، ما يعني أن القاتل وجد صعوبة جمة في التخلص منه. أضف إلى ذلك قطرات الدم المتناثرة على ستار النافذة، وطريقة قطعه شريان يده تحمل من الدقة ما يكفي للشك التام في وجود قاتل متمكن يعرف جيدا ما يقوم به. كل هذا يعكس أن ما حدث هي جريمة قتل، بالرغم من عدم وجود أي أثر لبصمات تبدي ذلك. لكن ذلك القرص العجيب الموجود بجانبه والذي يحمل أغنية الأحد القاتم، اليوم نفسه الذي انتهت فيه حياته. هذا القرص الذي أراد أن يوهمنا بأنها حادثة انتحار شخص، حاول أن ينهي حياته الكئيبة بعد أن استمع لأغنية تتجسد فيها الكآبة بكل معانيها، وتحمل دعوى صريحة للموت. ثم ما المقصود بتلك العبارة الغريبة التي يحملها؟. مهلا لحظة...تذكرت شيئا ما...هناك عبارات غريبة تلفظ بها إميل أثناء التحقيق كإشارات مبهمة، لوحات غامضة تحمل ألغازا ورموزا، وفك أحجيتها كفيل بمعرفة هوية الشخص الذي يلاحقه. هكذا إذا هناك من يريد

إلحاق الأذى به، أيعقل أن يكون هو من تخلص من ميشيل وسام في الآن ذاته؟ لكن ما الذي يعنيه بلوحات غامضة؟. أهذه طريقة جديدة يعتمدها في تهديده؟ أم هو يشير إلى لوحاته الخاصة؟ لما لم يستنجد بالشرطة حينها؟. ربما ذلك راجع لسببين: إما أنه يعيش تحت تهديد واضح من طرف هذا الشخص المجهول، أو ربما عدم ثقته بالعميد هي السبب. فما رأيته اليوم يثبت ذلك نظرا لعلاقتهم المتوترة. أيمكن أن يكون العميد آذار هو من وراء كل هذا؟ لا أستبعد ذلك، فما رأيته اليوم لا يقصيه من دائرة شكوكي مطلقا، إصراره على اعتقال إميل، وتلفيق تهمة موت والده لوالد إميل مع علمه التام بأن والده كان فردا في عصابة الشياطين الحمر. أيعقل أن يكون العميد نفسه فردا من أفراد العصابة؟ فتستره اليوم عن ما فعلته المنظمة بقتل والده لهو دليل جلي على إخلاصه التام لهم. وإن كان الأمر كذلك، فما الدافع الحقيقي للنيل من إميل، خاصة وأن أساليبهم في القتل هي تصفية تامة وليست مثلما حدث لسام. حقا إنه لأمر محيرفعلا، ثم ما الذي يدفع العميد آذار إلى إطلاق سراح إميل مادامت الفرصة سانحة للانتقام منه؟ موقفه المغاير جاء فجأة، مباشرة بعد تلقيه تلك الرسالة الغامضة في هاتفه، أيعقل أن يكون القاتل هو شخص جالس خلف الكواليس، يحرك في الخفاء خيوط هذه اللعبة القذرة عن بعد، والعميد ما هو إلا بيدق من البيادق الأخرى في رقعة الشطرنج يحركه كيف يشاء؟ لكن ما الذي سيستفيده من ارتكاب جريمة، إن كان بوسعه اعتقال من يريد وإطلاق سراحه في الوقت نفسه؟ هذا ضرب من الجنون، فِعل شيء ونقيضه ينفي المعنى الصحيح.

توقف كاسانو للحظة عن الاهتزاز فوق الكرسي، ثم أخذ قطعة من الحلوى وتابع: ما ذكره العميد آذار عن والد إميل يثير استغرابي، فالسيد توبايس ليس إنسانا بريئا بدوره، فهو أيضا

كان فردا في عصابة لبيع الأسلحة، ما يعني أن أعماله الماضية لها ماض أسود وأثر لا ينمحي، وها هي تعود لتلقي بظلالها السوداء من جديد على ابنه الآن في الحاضر، أو ربما لها حسابات أخرى لم تقم بعد بتصفيتها؟ مهلا...كيف غاب عني هذا الأمر؟ تلك اللوحة التي توصل بها هورتن في الحانة، واتصاله بي في تلك الليلة وكأنه يريد إخباري بشيء ما، كثرة شربه ونذمه الشديد، ربما هورتن كان تحت تهديد شخص ما!! أيعقل أن يكون قد عاد لعمله القديم؟ ربما...فكل شيء ممكن. ربما هو يعمل لصالح العصابة التي قامت بتصفية والد إميل ووالدته؟ أو ربما هو يعمل لتحقيق مطامعه الشخصية فحسب؟. لقد لمحت اعترافا ما بعينيه، لكن لم أستطع تحديده، إن كان هورتن هو من يهدد إميل، فلما لم يتخلص منه؟ أكان ينتظر فرصة كهاته؟ ولكن لما تخلص من سام؟ لا يوجد مبرر واضح ليفعل هذا؟ وما سر تلك اللوحة التي كان يحملها معه فجأة؟ أيعقل أن تكون هي ضمن تلك اللوحات التي أورد إميل ذكرها في التحقيق؟...

توقف كاسانو للحظة، وفرك عينيه المحمرتين بيديه، ثم تابع قائلا: هناك حلقة ما مفقودة في هذه السلسلة المترابطة، هي ذاتها التي تضمن استمرارية وضوح هذه الأحداث، وهي نفسها ما تجعلني أزيغ عن جادة الصواب في آخر لحظة أبصر فيها شعاع نور. لكن لن أستسلم أبدا، فلا توجد هناك جريمة كاملة، هذا ما تعلمته وهذا ما أؤمن به، ففي كل مرة يظهر خيط جديد، إلا وتزيد حيرتي في اكتشاف المزيد...آه... يا لغرابة الحياة؟ أحيانا يقتحم الماضي الحاضر بكل وقاحة ويعبث في مذكراته لينبش الغبار عن ذكريات نظن أنها ماتت مع توالي السنين، فيعود شبحها في شكل مغاير تماما متنكرا بألف قناع. بعدها وضع كاسانو يديه على رأسه لمدة من الزمن كأنما أحس بصداع شديد، ثم قام متثاقلا باتجاه أصيص الورد، وهو

يحمل بيده كوب ماء ممتلئا عن آخره، وعيناه تحملقان إلى زهرة الأوركيدا السوداء أمامه، والريح تداعب تويجاتها يمنة ويسرة في تناغم وانسجام تام. اقترب منها وسحب الأصيص على مهل من جانب النافذة المطلة على الشارع وعرضه للضوء، وبعدها أخذ يسكب الماء عليها ببطء، وحينما انتهى من ذلك، وقف مندهشا أمام توهج الوردة نظرا لتداخل قطرات الماء مع أشعة الشمس وكأنها تحفة كريستالية لامعة. ظل يحدق بها لدقائق طوال، وفكره جذلان مشرق يهيم به في الماضي البعيد، وكأن الزمن الحاضر قد توقف فجأة، تاركا بذلك فسحة لحنين الذكريات. في تلك اللحظة رسمت ابتسامة مشرقة على محياه ثم قال: حقا يا وردة الأوركيدا السوداء، إن من ينحني يسهل تغييره وتشكيله، ومن بقي شامخا سيعانقه البياض لا محالة. ظل ساكنا لوهلة ثم نظر إلى ساعته اليدوية ففوجئ بأنها تشير إلى الساعة السابعة صباحا، حينها أكمل قائلا: وجب علي لقاء إميل فهذا موعد خروجه من السجن، أنا محتاج لتوضيح بعض الأمور الغامضة. بعدها حمل سترته وهم بالخروج، وحينما فتح الباب تهاوى فجأة ليسقط على الأرض مغمى عليه.

****

حينما تنفض الحياة عن وشاحها شهد الأيام وسكينة الحنين، وحينما تتسارع عقارب الساعة مبتعدة عن الماضي مقبلة على المستقبل، حينها فقط تنتفض النفس بهدوء صارخة بصمت معبرة عن وقائع تربطها بالشجن. فأي الأمرين سيختار؟ وفي أي الاتجاهين سيسير؟. هذا ما تساءل عنه إميل في أعماق ذاته، سؤال اختزل جوابه في أحاسيس ظهرت جليا على محياه، فبنظرات صارمة، وبابتسامة مضيئة مفعمة بالأمل تمحي آلام السنين وترسم دربا جديدا

لخطواته. قرر لقاء هورتن من أجل استفساره عما جرى ومواجهته بأفعاله. وإن كان حدسه على صواب، فلابد من إخبار الشرطة بكل الجرائم الفظيعة التي تسبب فيها، ووضع حد لأعماله الدنيئة.

كان إميل على غير العادة واقفا أمام باب السجن، يخمن في خطة محكمة تنتشله مما يحاصره. وبعدما أدار رأسه يسارا، لمح قطة رمادية اللون حاملة صغيرها بين فكيها وقامت بوضعه في علبة بالية قرب جدار إسمنتي في موضع خفي عن الأعين. كانت العلبة التي اتخذتها الهرة ملجئا لصغيرها ممزقة نوعا ما وتبدي ما بداخلها، لكن كثافة الحشائش من حولها أخفت معالمها بالكامل وجعلتها عصية عن الرؤية، وحينما اطمأنت الأم تماما بأن ابنها في مأمن من أي خطر محتمل، انصرفت باحثة عن شيء من الطعام لصغيرها. تابع إميل هذا المشهد المؤثر باهتمام بالغ، ثم قال في ذهنه: لولا سلوك هذه القطة لكنت أغفلت أمرا في بالغ الأهمية، ولدفعت ثمنه غاليا. لذا يجب علي الاتصال بليليانا أولا لأطمئن عليها، ولأخذها إلى مكان بعيد يستحيل لذاك الأحمق الوصول إليه، فهذا المختل لن تجدي المواجهة معه نفعا، وإنما سأحاول مجاراته في لعبته الحمقاء تلك بما يمليه هو، كي يتأتى لي الإيقاع به وكشف هويته الحقيقية. حوار داخلي رسم أول خطوة من مشوار إميل بعدما وطأت قدماه أرض الحرية من جديد. وحينما اتسعت الرؤية وعم التفاؤل محياه، نظر إلى ساعته اليدوية كعادته، ليجدها السابعة وخمس عشرة دقيقة صباحا، ثم أخرج هاتفه من جيب بنطاله، وحاول مهاتفة ليليانا. بعد أربع محاولات لم ترد، إلا أنها بعثت بعد ذلك برسالة تقول فيها: "أهلا إميل أنا في المنزل الآن، أنا حقا متعبة كثيرا، لذا قمت ببعث رسالة بدل الحديث معك على الهاتف، من فضلك أنا أحتاج إلى مساعدتك".

أجابها: "حسنا...دقائق وأكون عندك".

اتجه مسرعا باحثا عن أول سيارة أجرة يجدها لكي يصل إلى وجهته دون تأخير. وبعدما استقل الشيء الباحث عنه، قلق انتابه تجاهها خوفا من أن يصيبها مكروه ما. في دقائق معدودات وجد نفسه أمام باب منزلها. دهشة اعترته لكون الباب لم يكن موصدا. ولج إليه بخطوات مسرعة وبشكل هستيري صرخ مناديا باسمها، وأخذ يجري باحثا في كل أرجاء المنزل، لكنه لم يجد شيئا يخمد نيران خوفه وترقبه، ولا حتى استجابة تذكر من قبلها. ظل يبحث ويبحث متنقلا من غرفة إلى أخرى كالمجنون، إلى أن وجدها أخيرا مستلقية على السرير. كانت ممدة دونما حراك، شاحبة الوجه. حاول جاهدا إيقاظها لكن للأسف طلبه رفض بسكونها وعدم حراكها، مما جعل قلبه يكاد يتوقف خوفا وقلقا عليها، لذا قرر حملها على وجه السرعة إلى أقرب مستشفى.

بعد دقائق من محاولة قتل الوقت والانتظار، ظل إميل يمشي جيئة وذهابا في ممر المستشفى، مستفسرا نفسه عن ما وقع لليليانا. كان متوجسا خائفا من أن يحصل مكروه ما لها، ظل متوترا مشدود الأعصاب، ولم تخف وثيرة ذاك الضغط والاضطراب إلا لحظة خروج الطبيب الذي طمأنه بأن ليليانا بخير وحالتها مستقرة بعدما تم غسيل معدتها من مادة سامة كادت أن تودي بحياتها، وأخبره بإمكانية رؤيتها حالما تستفيق. خبر جعل إميل يتنفس الصعداء أخيرا. بعدها جلس على الكرسي المتواجد على طول الممر. في تلك اللحظة صوت امرأة عجوز كسر انتظاره:

- من فضلك يا بني أيمكنك إرشادي إلى الخارج.

حينما نظر إليها وجدها امرأة كفيفة ترتدي نظارة سوداء، وهي تمد يدها نحوه، أجابها قائلا:

– حسنا...من دواعي سروري.

أجابته مبتسمة:

– شكرا جزيلا لك.

نهض إميل وأمسك بيدها واتجه بها إلى الممر المؤدي إلى الباب الخارجي للمستشفى. وفي طريقهما بادرته قائلة:

– تبدو قلقا هل تنتظر خبرا عن قريب لك هنا؟.

أجابها مستغربا:

– كيف عرفت ذلك؟.

– من يدك فهي باردة وترتجف.

– معك حق سيدتي، لقد مررت بظرف صعب قبل قليل، لكن الحمد لله أصبح كل شيء على ما يرام.

– حمدا لله.

بعدما أوصلها إلى الخارج، قام بإيقاف سيارة أجرة وساعدها للصعود، ثم عاد أدراجه مسرعا متلهفا لرؤية ليليانا والاطمئنان عليها. وما إن وصل حتى تفاجأ بعدم وجودها في الغرفة. اتجه راكضا كي يسأل عنها، وفي طريقه رن هاتفه ليكسر حيرته الممزوجة بقلق من خلال رقم ليليانا الظاهر على شاشته. بعدها تنفس إميل الصعداء، ليجيبها قائلا:

– أين أنت الآن؟ فأنا قلق عليك كثيرا....

– لم يعد من داع للقلق عليها بعد الآن مادامت بصحبة مخاوفك.

كانت نبرات صوته مألوفة جدا. تحيل مباشرة إلى المرسل المجهول، فأجابه متوترا:

– أقسم لك، لو لمست ليليانا بأذى، فسيكون حتفك بيدي هاتين. إني أحذرك...

قاطعه قائلا:

– أنت من تحتاج هذا التحذير لا أنا. أركض إلى منزلك فإن وداع ليليانا ينتظرك هناك. لم يتبقى لك متسع من الوقت، فالعد العكسي قد بدأ الآن، والدرب راح ينسج طريق الخلاص.

انتهى الاتصال وأحس إميل بدوار صاحبه تعب شديد. حاول الحفاظ على تماسك أعصابه وافترش الأرض دونما تفكير. وحينما استجمع قواه، قرر التوجه إلى المنزل راجيا بأن يكون كل ما سمعه الآن هو مجرد تهديد عابر لا غير، لكن داخله المتأجج كبركان ثائر، كان ينبئه بعكس ذلك.

وصل إلى المنزل والعرق يتصبب من جبينه، وبيدين مرتجفتين فتح الباب، وبنظرات يقظة دخل المنزل دونما إحداث أي ضجة تذكر. وأخذ يبحث بنوع من الحذر في كل زاوية من زوايا منزله، لكنه لم يجد شيئا سوى علبة مغطاة ولوحة. نظر إلى اللوحة فأبصر رسما ثلاثي الأبعاد لوجه ليليانا خطت ورائه: "زجاج الحفلات قد انكسر في صمت". وما إن فتح العلبة حتى تجرع على مضض سم الصدمة الكبرى، إذ وجد بها قلادة ليليانا الكريستالية وبها بعض من قطرات الدماء. تلك القلادة هي ذاتها التي أهداها إياها في عيد ميلادها السابق. في تلك اللحظة شل سائر جسده من هول ما رآه، واستجاب عقله طوعا لضرورة الإغماء. لطالما حاول جاهدا عدم الانهيار، لكن الصدمة هذه المرة فاقت إدراكه، فانهار بثقله غائبا عن الوعي. تهاوى على الأرض دونما حراك.

الساعة الثامنة وست وأربعون دقيقة صباحا، رائحة غريبة شبه مألوفة، وأصوات خافتة. وما إن فتح عينيه حتى صار لكل ما حوله معنى. لقد استعاد كاسانو وعيه ليجد نفسه مستلقيا على السرير في المستشفى، وحينما حاول النهوض سمع صوتا يخاطبه قائلا:

– وأخيرا أفقت يا صديقي...

التفت كاسانو ليجد صديقه الضابط أيان جالسا على كرسي بالقرب منه، فأجابه مستغربا:

– أنت من أحضرتني إلى هنا؟.

– لحسن حظك جئت في الوقت المناسب وقمت بنقلك إلى هنا، ربما أجهدت نفسك في التفكير كثيرا، فقد أخبرتني الطبيبة بأن ما حدث لك كان نتيجة إرهاق وضغط نفسي، مما أدى إلى هبوط حاد في ضغط الدم، لذا وجب عليك بأن تريح أعصابك وتأخذ فترة...

قاطعه كاسانو قائلا:

– هل ظهرت نتيجة التحليل المخبري؟.

ضحك أيان ثم أجاب:

– هذا هو كاسانو الذي أعرفه، أوصيك على صحتك وأنت تفكر فيما حدث. حسنا سأخبرك...في الحقيقة كنت قادما إليك اليوم صباحا من مركز الشرطة كي أخبرك بالنتيجة، فانتظرت حتى تستقر حالتك.

قاطعه كاسانو متلهفا:

– هيا أخبرني...إميل بريء أليس كذلك؟ وهناك مجرم آخر خلف ما حدث؟.

– بالفعل هذا صحيح، العقد المبرم لبيع اللوحات ذو توقيع مزيف، والفاعل كان شخصا بارعا جدا، فكيفية تقليده تشبه الحقيقي إلى حد كبير.

– لكن هذا دليل لا يبرئ إميل بتاتا مادام اسمه وارد في مفكرة ميشيل، ثم لا تنسى فقد يكون هذا التوقيع المزيف مجرد ورقة ضغط على إميل من أجل سلب لوحاته منه بالقوة مما دفعه إلى قتل ميشيل.

– لا أظن ذلك...فرفع البصمات يبرئه من الجريمة أيضا.

– هذا ما توقعته، هناك مجرم خلف الستار.

بنظرة خبيثة وبشبه ابتسامة أردف أيان قائلا:

– اذهب الآن لتأخذ قسطا من الراحة، ولا تشغل بالك مطلقا بهذه القضية، فحلها صار وشيكا وسيأخذ القانون مجراه.

وقف كاسانو مترنحا واقترب من أيان، ونظر مباشرة في عينيه قائلا:

– أنت تخفي شيئا ماعني؟ أليس كذلك؟.

– ما هذا؟ ألا يفوتك شيء مطلقا؟.

قاطعه كاسانو بصوت حاد:

– لن أرتاح ويهنأ لي بال حتى تخبرني...هيا...

– حسنا...التحليل المخبري لم يظهر هذه النتيجة فقط، بل كشف لنا عن بصمات شخص آخر.

– لمن؟.

– إنها بصمات لشخص ذو سوابق، لديه سجل إجرامي حافل في سجلات الشرطة، وهو لا يخفى على أجهزة الأمن ولا حتى عنك.

– بعينين شاردتين تفكران فيما قيل، وبملامح كلها استغراب، سأل كاسانو:

من؟!أتقصد...؟!.

– نعم...إنه صديقك القديم الذي بفضله أنت الآن واقف هنا. إنه هورتن.

عاد كاسانو ليجلس منهارا على السرير، ثم تساءل في نفسه:

– أهذا ما كان يود هورتن قوله لي في الحانة؟ ثم عاد ليسأل أيان: ولما فعل كل هذا؟.

أجابه أيان رافعا حاجبيه:

– حقا لا أعلم السبب، فالتحقيق مازال جاريا. ثم سكت قليلا وملامحه يبدو فيها شيء من الاستغراب.

قاطع كاسانو شروده قائلا:

– أهناك شيء آخر؟.

نظر أيان في عيني كاسانو وأجاب:

– حينما قمنا بتفتيش منزل هورتن، عثرنا على أذلة كثيرة تدينه.

رد كاسانو متسائلا:

– عن أي أذلة تتحدث؟.

– لقد عثرنا على توقيع إميل الأصلي لإحدى صفقاته، وغالب الظن أن هورتن قام بسرقته ليعمل بذلك على تقليده. كما وجدنا أيضا نسخة لمفاتيح منزل إميل والتي بفضلها تمت سرقة توقيع إميل الحقيقي...

قاطعه كاسانو مندهشا:

– ماذا قلت مفاتيح منزل إميل؟.

– أجل، لكن الغريب في اللأمر أن من ضمن ما عثرنا عليه لوحة غريبة موضوعة تحت سريره، كأنما يحاول إخفائها.

– أقلت لوحة؟ ما الذي تحمله بين ثناياها؟.

– كان رسما غريبا. لوحة لرجل عجوز وبها أيضا سكين يحتوي على قطرات دم، ناهيك عن بصمة حمراء طبعت في أسفل اللوحة، وما زادها غرابة حقا هو أن وجه العجوز كان مألوفا جدا...

قاطعه كاسانو مستغربا:

– قلت وجها مألوفا؟ أهو شخص نعرفه؟.

– حق المعرفة يا كاسانو، إنه العجوز ميشيل، لكن...؟.

– لكن ماذا...؟.

– في الحقيقة يظل كل شيء مجرد فرضيات إلى أن تصدر النتائج الأخيرة للمختبر الجنائي، وتصبح تأويلاتنا حينئذ أذلة ملموسة تدين هورتن...

قاطعه كاسانو بقوله:

– ليتني كنت هناك ورأيت تلك اللوحة وتفحصتها عن كثب.

نظر إليه أيان متعاطفا مع شكوكه، ثم أجابه:

– اللوحة الآن هي من ضمن المحجوزات في المختبر، لكن مادمت تريد رؤيتها، فما عليك إلا انتظاري حتى أذهب إلى هناك، وسأبعث لك بصورة لها عبر هاتفي المحمول.

ابتسم كاسانو شاكرا أيان على هذه الخدمة، لكن سرعان ما تبددت ابتسامته هاته أمام ملامح أيان المتحسرة على شيء ما، حيث بادر هذا الأخير بقوله:

– يا لغبائنا، كيف أفلت هورتن من دائرة شكوكنا؟.

– ما الذي تقصده بكلامك هذا؟.

– هورتن يعمل كحارس في المعرض لدى إميل، وهذا الأخير وفر له هذا العمل رأفة بحاله، لأنه كان عاطلا عن العمل بسبب سمعته السيئة كسجين سابق.

– ماذا؟ هورتن كان يعمل عند إميل كحارس للمعرض؟.

– لا تقل بأنك لست على علم بذلك؟.

ابتسم كاسانو مستهزئا مدركا بأن هورتن ليس أهلا للثقة، ومن المؤكد أنه يخفي الكثير. تابع أيان كلامه مستفسرا:

– السؤال هنا هو: لما سعى هورتن إلى إلصاق التهمة بإميل؟ أهذا هو رد الجميل؟ لابد وأن لديه دافعا قويا وراء هذا؟.

في هذه الأثناء شرد كاسانو بتفكيره قليلا وهو يتذكر كلمات هورتن حينما تحدث بندم عن خيانته لليد التي أنقذته من الضياع. كلمات أدرك كاسانو معناها الآن، وتابع مسترسلا حبل أفكاره، مستحضرا بذلك عبارات هورتن، وكيف وصف نفسه بإنسان مستعد لفعل أي شيء إن اضطر لذلك، لأنه كان مدركا تماما لما هو عليه، و لم ينسى تلك اللوحة التي كان يحملها هورتن عند خروجه من الحانة. حينها صوب كاسانو عينيه نحو أيان وأجابه:

– هناك أناس لا يحتاجون دافعا لارتكاب جرائمهم، ففي أبسط الظروف تسيرهم نوازع الشر، ويتحكم بهم الجانب المظلم من ذواتهم، فيحجب نور بصيرتهم، ويغيب عقولهم، وينساقون بذلك نحو أهوائهم الإجرامية. وهورتن بالطبع هو واحد من هؤلاء.

– أتقصد أن هورتن هو المجرم المحتمل؟ أم أن هناك يدا خفية تحركه؟.

– ربما نعم، وربما لا، فلا شيء أكيد حتى الآن. بالمناسبة أود سؤالك، أين إميل الآن؟.

– لا أعلم لقد تم إخلاء سبيله اليوم في تمام الساعة السابعة صباحا، فهو بريء كما تعلم...مهلا لحظة، لما تسأل عنه؟ لا تقل لي بأنك عدت لتلك العادة السيئة؟.

– ماذا تعني بكلامك هذا؟.

– أنت تفهم قصدي جيدا. هل ستتقمص دور المحقق الشهم في هذا العالم الصعب؟ أنت لم تنسى ما حدث لك في الماضي؟ أليس كذلك؟.

طأطأ كاسانو رأسه لوهلة، وببسمة حزينة أجاب قائلا:

– كيف أنسى من كانوا سببا في مقتل كايا؟.

قاطعه أيان بصوت غاضب:

– أنت من حشرت أنفك في شيء لا يعنيك، فقد أقفل الملف وانتهت القضية وغادر زعيم عصابتهم السجن، لكن أنت لم تقتنع بذلك وصرت تبحث وراءه من جديد عن سبب يعيده إلى الزنزانة، فعلة كهاته كانت الخطأ الذي دفعت كايا حياتها ثمنا له، لكن رأسك المتحجر ذاك، جعلك تكرر الخطأ عينه مرة أخرى، وظللت تتعقبهم وتتبع كل خطواتهم، حتى كدت أن تدفع حياتك ثمنا رخيصا لتهورك لولا تدخل هورتن في تلك اللحظة...أتمنى أن تستوعب ما حدث، أحيانا لا يمكن تغيير بعض الأشياء، ولا محو الشر من أصوله. نحن فقط رجال قانون نحرص على تطبيقه، ولسنا أبطالا خارقين ننقذ الكون...

قاطعه كاسانو قائلا:

– هذا القانون ليس مثاليا، ونحن هنا لتقويمه. ومادمنا كذلك فلا مجال للشر أن يلهو خارجا.

نظر إليه أيان مليا، وبنظرة يائسة أجاب:

– أظن أنني لن أنجح أبدا في تغيير قناعاتك. لكن تذكر سأكون دوما إلى جانبك إن احتجت إلى مساعدة.

أجابه كاسانو باسما:

– شكرا لك أيان. ركز فقط على عملك، فأنا غير مستعد أبدا لخسارة زميل آخر، هو بمثابة الأخ بالنسبة لي، يكفي ما حدث لكايا.

بعدها نظر إلى ساعته اليدوية، وصرخ بأعلى صوته:

– إنها الساعة التاسعة وخمسون دقيقة، علي الذهاب الآن.

– لا لن تذهب إلى أي مكان، ما يجب عليك فعله الآن هو الذهاب إلى المنزل، وتناول هذه الأقراص المهدأة التي أوصتني الطبيبة بإعطائك إياها، والخلود إلى النوم، فهذا سيفيدك كثيرا، أفهمت؟. فإن لم تأخذ قسطا من الراحة، فلن تستعيد قوتك أبدا، ولن تستطيع الوصول إلى أي نتيجة.

بعدها حرك كاسانو رأسه بالإيجاب، وحمل سترته وهم بالخروج.

****

العاشرة والنصف صباحا. فتح الباب بهدوء وحينما هم بالدخول، لفت انتباهه ورقة مرمية أسفل الباب. حملها وأغلق الباب ورائه. كان شاحب الوجه متعب الملامح، لقد أخذ منه الإعياء مأخذه ولم يعد يقوى حتى على مجرد القيام بخطوة واحدة. استلقى على أريكته المستديرة الشكل، وأغمض عينيه طلبا للراحة والسلام الأبدي مع ذات مرهقة تشتاق للنوم،

لكنه عبثا يحاول، فقد ظلت أفكاره تصدح بصوت عالي وتنشر فوضى الأسئلة والاستفسارات من حوله، فقد حرمته من تذوق طعم النوم، لترغمه على النهوض مجددا وإكمال درب البحث، حيث أخرج الورقة المطوية من جيبه، وأخذ يقرأ محتواها بتمعن تام:

"ليس هناك موت نهائي يختطف الروح فجأة، بل هناك مراحل للعبة تموت أجزاؤك فيها تباعا. فحينما تفقد حبيبا يموت جزء منك، وحينما يضيع ضياء الأمل يموت جزء آخر، وهكذا حتى تندثر كل الأجزاء، ويأتي الموت بمثابة منقذ، ليأخذ شظايا الروح ويرحل. لكن ماذا لو فقدت كل آدميتك؟ ساعتها لن تكون هناك أجزاء متلاشية تنتظر حتفها، بل سيتجسد الموت فيك بكل بشاعته، لتخلص أرواحا تنتظر النهاية. ولتكن النهاية لعبة ذكاء، لأن نسج الموت بنباهة، أحد دروب المرح...أعلم بأنك دائم البحث عني، ها أنا ذا أقر بأن تحليلك منطقي وليس زائلا كألوان الربيع، وأعلم الحوار المتبادل والشنآن الحاصل، ذوات حاولت نسج ظل حقيقة بلا نور في قاتل دون اللجوء إلى زاوية قرينة بدرجة التدقيق...لكن احذر أن تسلك غياهب المنطق، لأن الحياة علبة مفاجآت ملئى بالعثرات، وما الشك إلا المعنى الناقص للحقيقة. أنا اليوم أشهدك أنت والزمن على طريق لا نهاية له. فأنا أقر جازما عدم قدرتك على إسقاط مفهوم الجريمة الكاملة هذه المرة، لأن الشر النسبي تلاشى بطغيان الشر المطلق وظلمة تستحلك جل زوايا تحقيقاتك، لتجد نفسك في متاهة لن تفضي بك إلا إلى مثلث الشيطان أو بوابة النجوم. لن تكون لتحقيقاتك معنى أبعد من ذلك، لأنك إن قررت اللعب معي، فيجب أن تشعل مناطق الذكاء القصوى فيك، لكن احذر أن تحترق بالجنون لأنك تلاعب روحا عادت من الموت لتحييك باسم أبراكساس.

أهلا بك في عالمي".

حين أنهى قراءتها، تناول دفترا صغيرا ذا غلاف أسود، يشبه في شكله دفتر مذكرات. فتحه وأخذ قلم حبر أسود، ثم شرع يدون، وكان أول ما خطه اليوم والساعة: الاثنين...العاشرة وثلاث وخمسون دقيقة صباحا، وكأنه يشير إلى تاريخ توصله بالرسالة المجهولة، وحاول بعد ذلك العمل على فك طلاسم هذه الرسالة، حيث بدأ يضع كل عبارة موجودة في الرسالة ويربطها بسهم، ثم يكتب ما توصل إليه ذهنه من تفسيرات عدة لمعاني غامضة، قد توحي له ولو بشكل ما إلى صاحب الرسالة المحتمل، وما الذي تريد أن ترمز إليه من مقاصد ومعاني. فكل ما خطه كان كخريطة مبهمة تشير إلى كنز مفقود. أول إشارة أثارت انتباه كاسانو كانت كلمة "الموت"، فقد ذكرت أكثر من مرة ولكن بمعاني مختلفة. ففي بداية الرسالة شبه الموت بمخلص الأرواح الحزينة التي تعاني. وهنا تبادر إلى ذهن كاسانو نوعية الضحايا التي يستهدفها صاحب الرسالة المجهول، ضحايا طحنت مشاعرهم تحت قطار الأحزان، وعانوا بما يكفي حتى أضحوا على حافة الانتحار، نقطة ضعفهم هي نقطة خلاص بالنسبة لهذا الشخص، حيث يستغلها ويدفع بهم إلى الموت كخطوة يعتبرها انعتاقا. توقف كاسانو مطولا أمام هذه الفكرة، وظل يجهد ذهنه كثيرا في محاولة للفهم والإدراك، وفي حديثه الاعتيادي مع نفسه تساءل: من هؤلاء الأشخاص؟ وهل لهذه الرسالة علاقة بما حدث؟ أم أنها مجرد صدفة؟. بعدها تابع تحليله قائلا: هذه المرة جسد الموت بمفهوم آخر، فقد أحاله إلى مجرد لعبة ذكاء هدفها المرح. وهنا توقف كاسانو قليلا، ثم عاد وكتب: وجود كلمة لعبة هنا، تحيل إلى أن الموت هو لعبة بالنسبة له، يغلفها بمجموعة من الرموزالغامضة التي تدفع إلى تحريك نباهة الضحايا، لكي يتوصلوا إلى فهم ما حدث أو ما سيحدث للنجاة بحياتهم. وهنا تبادر إلى ذهن كاسانو ألف تساؤل: هل لهذه اللعبة علاقة بما تلفظ به إميل أثناء التحقيق حول

اكتشاف هوية القاتل من خلال لوحات غامضة؟ وهل إميل واحد من هؤلاء الضحايا المستهدفين؟ وهل فشل سام في اللعبة كان السبب في نهايته؟ ربما ليس هناك أي علاقة تذكر بين هذا وذاك. ولكن مهلا لحظة...ما الذي يقصده هنا بمصطلح المرح في رسالته تلك؟ أخذ يلوح بقلمه لثواني، ثم تابع قائلا: ربما يقصد بذلك المتعة التي يستشعرها هو ذاته طيلة مراحل اللعبة وليس الضحايا؟ وكيف يتأتى له الاستمتاع بقتلهم هكذا إن لم يكن مدرك تماما بأنه هو المنتصر منذ البداية؟ أهذا ما يود قوله حقا؟ أم أن المعنى هنا يحتمل تأويلا مغايرا؟. لكن ما يبدو جليا، هو أن هذا الشخص يعاني اضطرابا نفسيا حادا، ما يجعله يستمتع كثيرا بتعذيب ضحاياه قبل قتلهم، لهذا جسد الموت في شكل لعبة. فالموت لا يمكن اعتباره بمثابة لعبة ممتعة على الإطلاق، إلا إذا كان القاتل يعاني بذلك خللا عقليا، ولا يعي تماما حقيقة ما يقوله أوما يفعله. تابع كاسانو تحليله لمفردة الموت وركز عليها كثيرا، وحاول استنباط بعض دلالاتها ومعانيها، ليضعها في خانة مغايرة كليا، حيث جسد صاحب الرسالة الموت في ذاته بعدما فقد آدميته، لتصبح روحا عادت من الهلاك. وهنا استنبط كاسانو مدى قسوة الظروف التي مر بها القاتل في حياته، ربما عاش حياة بئيسة جدا عانى فيها الشيء الكثير، لدرجة جعلته يفقد بذلك إنسانيته، وربما حتى المعنى الحقيقي لحياته، وكأنه جابه الموت في معركة وانتصر عليه، ليعود بعدها بروح تجسد الموت نفسه، فتجعل من الانتقام متعة وتسلية تثير في نفسه الكئيبة شيئا من المرح. توقف كاسانو لحظة وتناول قطعة صغيرة من الحلوى لكي تعوض جسده المنهك من كثرة التفكير ولو قليلا عن ما ضاع منه من طاقة. بعدها أخذ يحدق من جديد في ما كتبه. فعند عبارة: "أعلم أنك دائم البحث عني". تبسم كاسانو بشيء من الذهاء، وفهم على الفور بأنه مراقب منذ البداية، وأن كل خطوة يخطوها إلا

والقاتل على علم مسبق بها. لكن ما الذي يقصده بالتحليل المنطقي؟. تابع قراءة العبارات المتتالية بتمعن دقيق لفهم ما تحمل من دلالات، واكتشاف ما وراء المعنى بصدق، ليتساءل بذلك: ما الذي يقصده "بألوان الربيع" كي يكون زائلا مقارنة بتحليلي؟. سؤال ما لبث أن وجد إجابته سريعا فيما تلا من كلمات توحي بعلم صاحب الرسالة المجهول بالحوار المتبادل والشنآن الحاصل. وفي هذه اللحظة بالذات فتح فاه عن آخره، وجحظت عيناه، وعقدت الدهشة ملامحه، ورفع حاجبيه، وكأنه توجس خيفة من شيء ما. فهو لم يستبعد مراقبة القاتل لكل تحركاته، لكن أن يعرف القاتل ما حصل بينه وبين العميد آذار من خلاف حول براءة إميل، هذا ما لا يمكن للعقل تصديقه، فهو يعد بمثابة تحذير يجب أخذه إذا على محمل الجد. فذكره لكلمة "الربيع" توحي إلى فصل الربيع والذي يعرف بشهر آذار، وهنا إشارة خفية إلى اسم العميد، وهذا ما استوعبه كاسانو عندما أشار القاتل إلى الحوار والشنآن وكأنه وصف حي لجو الخلاف الذي ساد التحقيق، حين اختلفت زوايا النظر بين كاسانو والعميد آذار حول براءة إميل من عدمه. ليس هذا فقط، بل رجح رأي كاسانو ونعث نظيره العميد بالزائل، وكأنه يعلم مسبقا من القاتل أومتأكد من الخلل الذي شاب التحقيق، وبالتالي براءة إميل. وهكذا تناسلت مجموعة من التحليلات، مثل سلسلة التحمت حلقاتها وصارت تتماسك واحدة تلو الأخرى إلى ما لا نهاية. تفكير عميق وأسئلة متمردة تتعدى المنطق وتقرع باب الشك، وتصارع بحثا عن اليقين، ليستسلم لها كاسانو آملا في إيجاد خط الوصول، ليعود من جديد محلقا في دائرة مفرغة، محدثا نفسه مسائلا إياها، علها ترشده إلى ضالته، فقد استولت الحيرة على أفكاره. فكل ما شغل ذهنه، واستولى على تفكيره، هو كيف أمكن لهذا المجهول معرفة ما حصل بينه وبين العميد من خلاف؟ هذا هو ما بعثر أوراقه كليا. فمن

يكون هذا الشخص؟ وهل له جواسيس في مركز الشرطة؟ أيعقل أن يكون العميد هو أحد جواسيسه؟...لا...لا يمكن ذلك...ولو كان الأمر كذلك لما أيد دفاعي عن إميل؟ أيمكن أن يكون هو نفسه قاتل ميشيل؟ أيكون هورتن هو من بعث بالرسالة ويريد بذلك أن يقصيني كيلا أتورط معه في المشاكل؟ وما سر الرسالة الهاتفية التي توصل بها العميد؟ أيمكن أن يكون متورطا مع هورتن وأراد التستر عليه بإلصاق التهمة بإميل؟ ربما الأمر كذلك وليس مجرد حقد دفين كما كنت أظن، أعتقد بأن الخيوط تداخلت وتشابكت فيما بينها، وأضحى من المفروض التريث في استنتاج الأمور وتحليلها، خاصة أن هذا القاتل هو أقرب بكثير وأبعد مما أتصور...

بعدها تابع تحليل ما تبقى بحزم: فقد كان آخر ما ختم به القاتل رسالته، هو عبارة عن تحدي وجهه لكاسانو، حيث اعتبره أقل منه ذكاء، وأن تحليلاته لن تفضي إلى شيء يذكر، وبأن جرائمه سوف تتوارى خلف ستائر من الغموض، وسوف يغلق ملف قضاياها إلى الأبد، لتدخل بذلك في إطار ما يسمى بالظواهر الغريبة، بحيث شبهها بقضايا أخرى عجزوا عن فك لغز اختفاء ضحاياها، وعزوا ذلك إلى ضياعهم في أبعاد مختلفة باسم "بوابة النجوم"، أو باختطافهم من طرف قوة شيطانية تعرف باسم "مثلث الشيطان". وهنا تبادر إلى ذهنه حادثة انتحار سام، وتساءل كعادته: ربما يكون هذا المجرم هو وراء مقتل سام؟ وأوهم رجال الشرطة بأنها مجرد حادثة انتحار؟ أهذا ما يريد قوله حقا؟ أيعقل أن يكون هذا هو القاتل الغامض الذي فر من قبضة العدالة بذريعة جرائم الانتحار؟ أو ربما هي قضية أخرى بعيدة كل البعد عن ما حدث لميشيل وإميل؟ أوربما هذا مجرد استفزاز تافه؟. ربما خضت في دهاليز عدة؟ أو ربما هي مفترق طرق توصلني إلى الباب المقصود؟. وحينما أكمل تحليله، وحاول

طي الرسالة الغامضة، أمعن النظر في اسم القاتل "أبراكساس"، وأخذ يرمقه متأملا إياه لبرهة من الزمن، ثم تابع لف الرسالة كما كانت، وهو يقول في سره: حتى هذا اللقب الذي أطلقه على نفسه يحيي الأسطورة القديمة المنسية "أبراكساس الشيطان" التي تشبه سابقاتها. أبراكساس اسم شيطان يستغل قواه ويخطف ويقتل في جرائم يغيب فيها المنطق ويلف الغموض مسرحها لينتشر الرعب في كل زواياها، وما هو في الحقيقية إلا آدمي يلبس ثوبه الملعون ليضلل العدالة ويستغل المساحة المعتمة ليفعل ما يشاء. بعدها وضع الرسالة المجهولة فوق الطاولة بجانب بعض الأوراق الملونة المتناثرة هنا وهناك، وهي غالبا ما تكون مخصصة للأوريجامي. تناول إحداها ذات لون أسود، وما إن حاول البحث عن قلم أبيض تحت كومة الأوراق المبعثرة، حتى أحس بصداع شديد ألم برأسه، مما جعله يضم يديه واضعا إياهما على الطاولة، ومسندا رأسه إليهما متكئا مدة من الزمن، ليحس بعدها بارتياح وسرعان ما اختفى الألم، ليعود كاسانو إلى فن الأوريجامي مجددا كملاذ لأفكاره التائهة، حيث خط عبارة غريبة يقول فيها: "لطالما آمنت بتمرد التغيير مهما تصلبت جدران الذات، فطباع الشخص لا تتغير بمجرد اجتثاث شجرة الشر التي في داخله من جذورها، وإنما بالبحث عن بذرة الخير وسقيها". وحينما انتهى أخذ يلفها على شكل تنين أسود، وبكل ثقة وضعه بجانب المذكرة، ثم أخذ مفاتيح سيارته وأغلق باب منزله قاصدا وجهة ما.

****

بين ثنايا الموت، بين دركات الترقب، بين الماضي والمستقبل، هو خوف من الحاضر، مما سيحدث أو مما قد يحدث بين لحظة جفون. في ظل العتمة كان إميل يسير في حلمه متعثرا لكن بثبات نحو نهاية تبدو أنها لن تكون سعيدة، يا ترى هل من وسيلة للعودة إلى الواقع؟، أو على الأقل لإيقاف عجلة النهاية ولو لهنيهة حتى يسترد إميل أنفاسه؟، لكن لحسن حظه أفلت جاهدا من أنياب حلمه المخيف، ليستفيق على كابوس قاتل شاء لحلمه أن يتحول إلى واقع يحتويه، جسده مثقل وشبه مخدر وبالكاد فتح عينيه، رؤية ضبابية، ذبذبات صوتية خافتة لأغنية ما، إيقاعها بطيء، تبدو حزينة، يطال مسمعه، منهار القوى، ممدا على المنضدة مستسلما لقيود التعب. بعد محاولات عدة باءت بالفشل استطاع أخيرا أن يفتح جفنيه. اتسعت الرؤية شيئا فشيئا ليرمق ببؤبؤ عينيه مكانا يجهله تماما. نغمات الأغنية بدأت تسلك مجرى الوضوح. موسيقى الشجن وكلماتها الحزينة أكدت أنها أغنية الأحد القاتم، تلك الأغنية التي لا يمكن له نسيانها. أدار عينيه في جل الاتجاهات باحثا عن مصدر أغنية النحس تلك، لكن دون جدوى، يبدو أن صداها ينبعث من الخارج. دهشة انتابته ليخالجها إحساس بالرعب والقلق تجسدت في سلسلة رعشات تملكت جميع جسده، ليغمض بعدها عينيه ممنيا النفس بأن ما يجري هو مجرد كابوس مفزع استفاق منه دون أن يأذن له الواقع بالعودة. ظل مغمض العينين لدقيقة من الزمن، وما إن فتحهما ببطء حتى لمح نفس الرؤية مجددا، نفس المكان ونفس الإحساس. دقات قلبه تسارعت وعيناه تحملقان بما يحيط به. كان كل شيء يوحي بالخوف والاشمئزاز، فقد وجد نفسه في غرفة ضيقة، باردة وشبه مظلمة. وما زادها قبحا صوت السرير الذي كان ممدا عليه، فكلما تحرك فوقه إلا وأصدر أزيزا يصم الأذان نظرا لقدمه، فقد كان متهالكا ومتسخا. أما جدران الغرفة فقد كانت مطلية بتعابير غامضة

وكلمات غريبة وخربشات، كأنها تعاويذ سحرية قادمة من عالم آخر. كل عبارة خطت كانت ترمز لمعنى مبهم يخفق له الكيان. وما أثار انتباه إميل هو عبارة مخيفة مفادها: "النهاية اقتربت"، خطت بحروف عريضة كأنها رسالة موجهة لكل من تواجد في المكان والزمان الغير المناسبين. ظل إميل مشدوها يتفحص جنبات الغرفة التي يرمز كل شيء متواجد فيها إلى سوداوية المصير، أما أركانها فقد كانت لاتخلو من خيوط العناكب. كان كل شيء فيها يصعب تصديقه ولكن ليس وهما، كل شيء هو أقرب ما يكون إلى الجنون. لذا حاول إميل النهوض بكل قوته، ليتمكن أخيرا من الوقوف بصمود مبددا شيئا ما مشاعر الخوف والقلق. جميع أحاسيسه السلبية كانت له دافعا أقوى لمحاولة البحث عن شيء ما في هذه الغرفة الملعونة، يمكنه من الخروج منها مهما اقتضى الحال. نظر هنا وهناك ليلمح دولابا خشبيا أسود قديم، وما إن اقترب منه حتى توقفت نظراته فجأة، واستقرت بإمعان على لوحة موضوعة بالقرب منه، رسم فيها شخص يرتدي رداءا أسودا واسعا بغطاء رأس، ويرتدي قفازا جلديا ذو لون أسود حالك، وفي يده اليمنى خنجرا حاد يعكسه للأسفل، كأنه مستعد للانقضاض على ضحيته في أي وقت، أما ملامح وجهه فهي متوارية خلف قناع أبيض مخيف، وبجانبه يسارا خطت عبارة "انتهت اللعبة"، وكأن كل شيء سينتهي الآن في هذه الغرفة.

GAME OVER

بخطى متثاقلة اقترب إميل من اللوحة، وبيدين باردتين مرتجفتين راح يتفحصها. كانت تشبه اللوحات الغامضة التي كان يتوصل بها سابقا، حينها تساءل بصمت: أحقا هذه هي نهايتي؟ وهل حياتي حقا هي لعبة قرر هذا المسخ أن ينهيها؟ لما يفعل بي هذا؟ لما؟. بعدها انهمرت الدموع من عينيه، وصرخ بأعلى صوته: أخبرني من تكون؟ وأي شيطان أنت؟ ولما تختبئ خلف قذارتك؟. وفجأة ودون سابق إنذار، إذ بصوت مزعج وقوي عم المكان، واحتوى صرخات إميل، فقد كان يشبه صوت قبضة حديدية صدئة، يحاول أحد ما فتحها. كان هذا كفيلا بأن يخرسه، ووجه بصره صوب باب الغرفة وهو يفتح، كان متسمرا في مكانه دون حراك، كانت كل أعضائه قد شابها نوع من الشلل، وتسارعت نبضات قلبه حتى أوشك على التوقف، وجحظت عيناه، وانصهر في حالة من الذهول والصدمة، وانتابه شيء من الخوف ممزوج ببعض الفضول. كانت حالة فريدة من نوعها يعيشها إميل لأول مرة في حياته. ظل هكذا حتى أبصر شخصا ما يدخل ويقف أمامه، كان شخصا ضخم البنية، طويل القامة، توارى خلف عباءة سوداء اللون تشبه تلك التي في اللوحة، غير أن القناع الذي كان يضعه فوق رأسه، بدا مختلفا نوعا ما، فقد صمم على شاكلة جمجمة بشرية مخيفة المظهر، وكان يحمل مسدسا بيده اليمنى. وفي هذه اللحظة بالذات رجع المقنع خطوتين إلى الوراء، ومال برأسه يسارا. ظل ساكنا دون أن ينبس ببنت شفة، ووضعية وقوفه استنسخت توأمها في شخص آخر وفي مكان مختلف. فأمام باب منزل إميل كان كاسانو واقفا على نفس الهيئة السابقة، كأنهما ظلان متماثلان لنفس الشخص. وفي اللحظة ذاتها أدار كاسانو عينيه صوب الباب، فلمح فراغا غير واضح، اقترب قليلا، وما إن وضع يده على الباب محاولا دفعه، حتى فوجئ بكونه لم يكن مغلقا بالأساس، حينها أطل برأسه مناديا على إميل، لكن عبثا يحاول، فلم يلقى

لندائه مجيبا. هذا ما جعله يدخل إلى المنزل عله يجد ولو بعضا من الأجوبة. عند دخوله لفت انتباهه جمالية المكان ورونقه الباهر. فقد كان مرتبا ونظيفا، والأثاث له شكل متفرد وخاص جدا، وكل شيء كان يتناسق تماما مع مكان تواجده، كأنما البيت تحفة فنية تبعث في نفس كاسانو إحساسا رائعا ودفئا عارما، فقد كان لهذا المنزل سحره الخاص. ظل كاسانو يتجول ببطء، ريثما قادته قدماه إلى غرفة مفتوحة، تطل بشباكها على الحديقة الواسعة الممتدة، على جدارها علقت لوحة فنية تجسد أزهار الأوركيدا السوداء. رسمها كان يحاكي الواقع بشكل كبير جدا، ويبرز الحقيقة في أبهى تجلياتها، إتقان مبهر حقا، قلما تجود به ريشة أمهر الفنانين. ظل كاسانو يحدق بتمعن في أدق تفاصيلها للحظات، بعدها أدار وجهه صوب مكتب متوسط الحجم، ذو لون رمادي نقشت به زخارف، ووضعت من فوقه أوراق للرسم وأقلام وصباغة. اقترب منه كاسانو وراح يتفحصه بدقة، ثم انتقل إلى رفوفه المتراصة، وراح يفتش بين أدراجها، ليجد في إحداها دفتر مذكرات، حمله وقام بفتحه، ثم راح يقلب صفحاته متفحصا ومتأملا، حينها وقع بصره على صورة عائلية وضعت في أعلى صفحة من الصفحات، تضم صورة إميل إلى جانب فتاة جميلة تبلغ تقريبا ست سنوات من العمر، هي أخته إيمي، بالإضافة إلى والدته إميلي ووالده توبايس، وأسفل منها خطت عبارات وخواطر، سرد فيها مجمل اللحظات التي قضوها في الماضي. كانت عبارات مؤثرة حقا، وما زادها تأثيرا سرده للحادثة التي غيرت سعادته، وخطفت منه والده وأخته ثم والدته، هاته الأخيرة التي انتهت حياتها في المستشفى، ولم تترك له سوى ذكرى مؤلمة لأغنية الأحد القاتم، والتي كانت سببا غير مباشر في رحيلها. كان لهاته الخواطر وقعا كبيرا في نفس كاسانو، إذ حركت فيه نوعا من الشك والفضول، فالأغنية هي ذاتها الموجودة على قرص الموسيقى الذي

وجد عند سام، مما جعله بدوره يسلك أيضا نفس النهاية "الانتحار". وهنا خلص كاسانو إلى أن هناك أسلوب إجرامي واحد يسلكه القاتل عينه، وانتابه الشك في موت والدة إميل، ما يعني أن إميل كان ملاحقا منذ البداية، لكن هل ما حدث يدرج والدته في خانة الضحية المنتحرة أم أنها جزء من انتقامه؟؟ سؤال عابر سرعان ما تلاشى كفقاعة صابون، أمام صورة أخرى ملصقة خلف الصفحة، كانت تضم إميل وشخصان آخران، مع فتاة متوسطة القامة، نحيفة القوام، بيضاء البشرة، سوداء الشعر، ذات عينان فاتنتان، وبجانبها شخص ضخم البنية، يرتدي نظارة شمسية، طبعت على محياه ابتسامة عريضة. ثم كالعادة وفي أسفل هذه الصورة أيضا، كتب إميل واصفا إياهم بأنهم ليسوا مجرد أصدقاء، وإنما هم أسرته المفقودة، واعتبر أول لقاء بهم يوما مقدسا وعيدا وعرسا، فقد تقاسم معهم كل شيء تقريبا، ماضيه ذكرياته وأسراره، لذا خصص لكل واحد منهم اعترافا خاصا وصادقا. فليليانا شبهها كثيرا بوالدته في شكلها وجمالها الفاتن، وفي حبها الجارف لتنظيم الحفلات، وضعفها أمام كل ما هو كريستالي. ولم يخفي حبه لها وإعجابه الدائم بها، فلطالما تمناها زوجة له في المستقبل.أما سام فقد كان سنده الوحيد في كل ما يواجهه من مشاكل، ويدعمه في كل شيء، فلطالما ناداه مازحا بأخي الأكبرأو العم سام. تابع كاسانو تقليب صفحات الكتاب، ليتوقف لحظة أمام صورة كلب من نوع الهاسكي، متخذا مكانه في صورة عائليه، كأنه واحد من أفراد الأسرة الكريمة، وقد كتب أسفله بخط عريض "أنا آسف يا صديقي بيل...إهمالي قتلك". ليتابع بعدها بكلمات حزينة، يصف فيها ذاك اليوم الأسود عن مقتله بعد توصله بأولى اللوحات الملعونة، وإحساسه القاتل الممزوج بريبة، وكذا شكه في هورتن نظرا لتواجده المفاجئ في تلك اللحظة، إلى جانب تصرفاته الغريبة. شكوك أحيت بدورها اتهامات كاسانو لهورتن،

فمحاولة إلصاق التهمة بإميل، وقتله ميشيل، بالإضافة إلى اللوحة، ونسخه مفاتيح منزل إميل، وندمه في الحانة، كل ذلك كفيل بإدانته، وربما هو القاتل المنشود. خرج كاسانو من الغرفة ليدخل إلى أخرى مقابلة لها، وبمجرد ما فتح بابها حتى فوجئ بعدد كبير من اللوحات المتراصة الواحدة تلو الأخرى، كأنها معرض صغير. اقترب كعادته رويدا، وما إن وقف شامخا حتى صرخ إميل في وجهه:

– ما الذي تريده مني؟ أأنت حقا هورتن؟ هيا أخبرني؟ محال...لا أظن ذلك، فهورتن ليس بهذا الحجم ولا بهذه الضخامة، بدأت أفهم الآن، ذاك الجبان هو من بعثك لتنهي ما بدأه، أليس كذلك؟.

– أيهمك فعلا معرفة من أكون؟ وإن كان كذلك هل سيفيدك ذلك في شيء؟.

– معك حق فأنا لم أفكر يوما بأن أتجرع غصة طعنات خيانة صديق تفضي بي إلى الهوة، كما جعلتني أيضا أفقد شعوري بالألم، فلا تطل حملك كثيرا لذاك المسدس، فلا هو يخيفني، ولا أنت بحاجة لقتل من فقد الحياة.

حينها أنزل القاتل المقنع يده التي تحمل المسدس، ثم أردف قائلا:

– لا تتفاءل كثيرا يا إميل، فأنا عادة ما أضع المسدس جانبا وأفتح مجالا للنقاش، رغم أني مقتنع تماما، بأن غباءك الفائق سيختصر المسافات.

وبشبه ابتسامة ممزوجة بغضب، أجاب إميل قائلا:

– أوحقا تظن أنني سأتجاذب أطراف الحديث مع مريض مثلك...أنت تمزح.

– ماذا لو كانت هذه آخر فرصة لنجاتك، حينها ستعتبرني طبيبا لا مريضا.

حينها شرد إميل بذهنه مطولا، ثم تساءل بصوت هادئ حزين:

– لما قتلت بيل؟ لما قتلت أصدقائي؟ والآن تريد قتلي، لما تفعل بي كل هذا؟...لما؟ ولصالح من؟.

– أنت من عليه أن يجيبني على هذا يا إميل؟ من يسبق أولا المعاناة أم الموت الخاطف؟.

سكون مطبق ساد المكانين لثانية من الزمن. بعدها أخذ كاسانو ينظر إلى اللوحات ورسوماتها الغريبة التي كانت تثير شيئا من الرهبة والخوف في النفس، فقد كانت مبهمة، وفيها شيء ما غير مفهوم، وكانت كل لوحة مرفقة برسالة، وكأن رسوماتها رموزا تكلفت كلمات الرسالة بفك غموضها. وهنا تأكد كاسانو تماما مما ذكره إميل أثناء التحقيق عن هوية من يلاحقه وعن قضية اللوحات الغامضة، ثم اقترب وانحنى ليأخذ لوحة البلياردو وأوراق اللعب. تمعن كاسانو فيها بدقة، ثم أخذ الرسالة المرفقة بها وراح يقرؤها بتدبر واهتمام. وما إن انتهى منها حتى أدرك بأن صاحب الرسالة يراقب إميل منذ البداية، فهو يعلم عنه الكثير من الأشياء، ما يعيشه من وحدة وحزن، أصحابه وتحركاته، تاريخ عيد مولده...بالإضافة إلى أن تاريخ وفاة بيل المذكور في مذكرة إميل، كان قبل عيد ميلاده بأيام قليلة، حيث إن فقدان بيل كان مباشرة بعد توصل إميل باللوحات، ما يعني أن لوحة البيلياردو كانت هي أولى اللوحات، وأن مرسلها هو من قام بقتل بيل، فهو يدعوه إلى التركيز على الرقم الثالث، ما يعني أن الأول والثاني محكوم عليهما منذ البداية بالموت. إن كان بيل هو الرقم واحد، فإلى من يرمز يا ترى الرقم الثاني؟ إذا عدنا مجددا إلى الرسالة، سنجد صاحبها يلمح إلى أن الباب المقصود لن يكون متاحا، إلا بطرق بابين خاطئين، أو يفقد بذلك دفء الأسرة مجددا. أظن أن البابين الخاطئين هنا، هما عبارة عن ضحيتين مقربتين من إميل، فأول هاتين الضحيتين هو بيل، وبما أنه ربط فقدان الباب الثالث بخسارة دفء الأسرة مجددا، فهذا يدل على أن ليليانا

هي الرقم الثالث، لأن إميل كان معجبا بليليانا وينوي الزواج بها من أجل بناء أسرة صغيرة، هذا الاستنتاج يحيلنا أيضا إلى أن الرقم الثاني هو سام وليس ميشيل، فرغم أن موتهما حصل في نفس اليوم وفي نفس التوقيت وجاء مباشرة بعد موت بيل، إلا أن هذا يستثني ميشيل من هذه الحسابات فهو قتل خارج اللعبة، لأنه ليس من المقربين من إميل، ناهيك عن تهديد صاحب الرسالة بعدم إقحام أي أحد فيما يجري، وذلك من خلال تشبيه مصيره بمصير الأوراق اليابسة أمام حدة المقص. وهذا ما ذكره إميل في مفكرته، من خلال ندمه الشديد لإخبار سام بما يجري وطلب مساعدته، وكذا تسليمه اللوحة وقرص الموسيقى، مما جعل القاتل يجرم في حق سام تاركا قرص الموسيقى عمدا لتضليل الشرطة وأخفى اللوحة دليل إدانته. حسنا إن كان تحليلي منطقيا، فمن يكون الرقم الرابع إذا ما افترضنا جذلا بأن الرقم الخامس هو إميل؟. أحس كاسانو بدوار بسيط، مما جعله يستند مرغما إلى الحائط، ومن تم يجلس على الكرسي. ظل ساكنا لفترة من الزمن، وبعدها قام بوضع اللوحة والرسالة جانبا، وهكذا مع مرور الوقت، بدأ يشعر بتحسن ملحوظ، ليسترخي قليلا وعيناه تجولان في أرجاء الغرفة، وتستقران فجأة على لوحة مسندة إلى الحائط كانت مباشرة في مرمى نظره. لوحة تشبه اللوحة الأولى من حيث الشكل، وحتى من حيث التوقيع الغريب "بصمة يد بلون الدم"، ذكرته حقا بما وصفه له صديقه أيان عن تلك التي عثرت عليها الشرطة في منزل هورتن. لكنه لم يتمكن فعلا من تحديد ما إن كانت تشبهها أم لا، لذا تريث قليلا في ظنونه، وتابع تأمله بشكل دقيق للوحة، بحيث كان رسمها مختلفا شيئا ما هاته المرة، فقد كانت تحوي شجرة جرداء، عارية تماما من الأوراق، وفي أعلاها كرة كريستالية، وعلى مقربة منها نظارة شمسية سوداء اللون. ظل عبثا يتأملها بنوع من التمحيص والتدقيق، وقبل أن يهيم في متاهة

أفكاره مرة أخرى، حاول النهوض مجددا، واقترب من اللوحة، وراح يبحث في حوافها هذه المرة، عله يجد رسالة ما تساعده بكلماتها ولو قليلا في فهم هذه الرسومات الغامضة، لكنه لم يجد أي شيء. حمل اللوحة وقام بقلبها، ليجد خلفها كلمات خطت بنفس الطريقة التي كتبت بها سابقاتها. انهمك يقرأ ما جاء فيها باهتمام، وتبعا لمفاهيمه وتحليلاته السابقة، قاده استنتاجه إلى نفس ما توصل إليه آنفا، وفي هذه المرة لم يكن الأمر عصي الفهم بالنسبة لكاسانو، فالمرسل المجهول اكتفى بالتركيز على الرقم الثالث، وجعل هويته مقرونة بعبارة "زجاج الحفلات على وشك الانكسار". هذه الجملة تعد بمثابة تهديد صريح بأن ليليانا هي الضحية رقم ثلاثة في ترتيب سلسلة الموت هاته، وذلك بعد مقتل كل من بيل وسام، لكونها هي الوحيدة التي تعشق الكريستال، وتحرص دوما على تواجده كزينة أساسية في جميع حفلاتها التي تنظمها، غير أن كرة البلياردو التي اعتمدها في الرسم، جاءت مغايرة تماما لما هي عليه في الواقع، فهي تحمل عادة الرقم ثمانية، لكنه عمد إلى استبداله بالرقم ثلاثة مؤكدا هنا على أن اللعبة هي لعبة صنعها وأوجدها على طريقته الخاصة، وعمد وحده إلى صياغة قواعدها، ومن تم وجب على إميل احترامها والامتثال لضوابطها وإلا أصبح خارجها جثة هامدة. فالرقم الثالث لم يكن ليعني أبدا نهاية ليليانا، فهو يرتبط أيضا بحياة القاتل، ولو أن إميل لعب حقا بمهارة وذكاء، واكتشف قبل فوات الأوان أن العدد ثلاثة في اللعبة يخص ليليانا، لكان أنقذها سلفا، ومن ثم يستمر في ملاعبة القاتل، مستغلا في ذلك ذكاءه، باعتباره سبيله الوحيد الذي يقوده نحو النجاة. هذا الأخير الذي سيكون حتما هو العنوان الأبرز في نهاية اللعبة، فمن يكون سباقا دائما إلى إرغام الند الآخر في اللعبة بإدخال الكرة يتوج بذلك فائزا، وعلى النقيض من ذلك من يرغمه الحظ في إدخالها، يخسر اللعبة كإشارة قوية إلى أن غباءه هو

من قاده إلى حتفه، إذ لا مجال للحظ في تحديد المصير. وإذا ما عدنا إلى أوراق اللعب علمنا كيف تقلب الموازين، فكفة المواجهة صارت في صالح القاتل المجهول، فإذا لم يستطع إميل بأن يكتشف بأن ليليانا مستهدفة، وحتى إن هو علم بالأمر ولم يمتلك القدرة الحقيقية على المواجهة واللعب بذكاء، فإنه حتما سيخسر الرقم ثلاثة، وذلك بوضعه ورقة اللعب الحاملة لهذا الرقم مرغما، ونهايته تؤشر إلى الانتقال بسرعة نحو الرقم الخامس الذي سيتجسد فيه. حيت نجد أن ورقة اللعب رقم خمسة تتضمن خمس قلوب، وهذا ما يشير بشكل واضح إلى أن القاتل يسعى إلى تصفية خمسة من أصدقاء إميل، وهو واحد من ضمن هؤلاء، كل هذا يقود إلى باب واحد لا أكثر ولا أقل، مفاده أن إميل إما أن يفوز بكرة البيلياردو أو يخسر بورقة اللعب.

بعد هذا التحليل المنولوجي لكاسانو، تساءل في نفسه قائلا: كيف يجتمع الذكاء والجنون تحت سقف واحد؟. مرت دقائق وكاسانو متسمر في مكانه، سارح بفكره غير آبه بالوقت، تائه بين العالمين، كفيلسوف يمتطي صهوة الشك باحتا عن الحقيقة، وبداخله إحساس خفي ينبؤه باقترابه من مناله المنشود. استمر ذهنه منشغلا ومشوشا، ورغم كل هذه المجهودات التي بدلها في سبيل تحليل هذا الكم الهائل من المعطيات ظلت بعض الأسئلة عالقة تنخر رأسه كالسوس. منذ الوهلة الأولى وشك كاسانو في هورتن لم يتوقف أبدا، نظرا لماضيه السيئ، وكذا إدانته بقتل ميشيل واختفائه المفاجئ عن الأنظار، ثم اللوحة التي عثر عليها في منزله، كل هذا يشكل أذلة دامغة تصنفه في خانة القاتل المعتوه الذي يلاحق إميل. كما وأن اشتغاله لديه ربما لم يكن محض الصدفة، وإنما كانت تلك خطته منذ البداية من أجل كسب ثقة إميل ومعرفة كل شيء عنه لتسهل عليه تصفيته. لكن كل هذا ليس مقنعا تماما، فتمت

هناك شيء ما غير واضح، فلما يفعل هورتن هذا؟ فأنا أعلم أنه شخص جبان، والقتل ليس هوايته. فما حدث لعائلته كان مجرد حادث لا غير، وأن قتله لذاك الشخص كان مجرد دفاع عني، كما وأن كل ما حكاه لي في الحانة، كان يشير إلى أنه يطأ ملعبا غير ملعبه، أيمكن أن تكون هناك يد خفية تحركه كيفما تشاء؟. فما يوجد أمامي الآن هو قاتل مريض لا ينتقم فحسب، بل يستمتع ويتلذذ في انتقامه، وسلسلة ضحاياه سحبت معها بيل سام ليليانا، وشخص آخر لازال مجهول الهوية، ثم إميل.

هذا ما جعل طريق الوصول مبهمة لدى كاسانو، فمن يا ترى صاحب الرقم الرابع؟ وهل القاتل هو هورتن حقا أم تراه شخص آخر؟. ظلت هاته الاستفسارات المبهمة تتسكع بين أزقة البحث، وتعكر بظلالها صفو ذهنه. واصل كاسانو بحثه عبثا عن حلقته المفقودة التي ينهي بها سلسلة أفكاره، ويتوج بها حلقة مجهوده المضني. فجأة تعالى صوت رنين هاتفه. كانت رسالة من صديقه أيان. هم بقرائتها على عجل، ليكتشف صورة اللوحة التي عثرت عليها الشرطة في منزل هورتن. أخذ يتفحصها بدقة ليجدها تماثل شيئا ما اللوحات التي رآها كاسانو في منزل إميل، وتحمل نفس البصمة الدموية في أسفلها، ما يعني على أنها لنفس المرسل، ولربما تعد هذه اللوحة هي ذاتها التي توصل بها هورتن في الحانة وحاول إخفائها. إن ما تحمله من رسم، يجعله ذو صلة وثيقة بالجريمة التي ارتكبها هورتن، فهما مترابطان إلى حد ما بخيوط خفية. إنها تعد بمثابة تهديد مباشر لما ارتكبه من جرم في حق ميشيل. ومن هنا تأكد كاسانو بشكل لا يدع مجالا للشك بأن من يرسل اللوحات ويهدد إميل ليس هو هورتن وإنما شخص آخر. إذا فهورتن يعد بمثابة بيدق في اللعبة لا غير، ولربما هو من يحمل الرقم الرابع. ضاع كاسانو في هذا الخضم وتابع مستغربا: من يكون هذا القاتل؟.

في الجانب الآخر ظل إميل صامتا، وكأنه مشمئز من هذا السؤال، لكنه كان متشوقا لمعرفة من يتوارى خلف ذاك القناع، فأجاب ساخرا عن سؤاله:

– لا سباق نحو النهاية مادام الواقع بائسا، فحينما تفقد من تحب بطريقة بشعة وبشكل متكرر، حينها تصير المعاناة موتا. بعدها نظر إميل إليه مليا، ثم أطرد قائلا: لا أظنك ستفهم إجابتي، لأن من يواجه الردى كل مرة يصبح معتادا عليه وغير آبه به، كظله لصيق به فيألفه ولا يعيره أدنى اهتمام. لذا لا تحسب نفسك ذو حضور هام، إنك في نظري لا شيء. فأنت لا تحرك في نفسي أي إحساس بالخوف، حتى وأنت ترتدي ذاك اللباس الغريب.

– ومن قال أنني أحاول إخافتك. تمعن جيدا ما أنت فيه وستفهم أنك ستتحرر بفضلي مما لم يعد يخيفك. فأنا خلاصك ونهاية آلامك.

– عن أي خلاص تتحدث. فأنت لست إلا شيطانا بغيضا يا هورتن...نعم أنت كذلك، ندمت كثيرا يوم ساعدتك، ليتني علمت بحقيقتك منذ البداية لما وقع ما وقع.

– لا زال غباؤك يقودك إلى الحافة كعهدي بك دوما. هورتن...هورتن....أتقصد صديقك الخائن هذا. وبركلة قوية من قدمه، أسقطت الدولاب الخشبي المتهالك أرضا، فسقطت منه جثة رجل أمامه. حينها فتح فمه واسعا، وغارت عيناه في رأسه، وتخدرت كل أعضائه، واصفر من هول ما رآه. فقد كانت الجثة لهورتن الغارق في بحر دمائه. بعدها تابع كلامه قائلا: وأخيرا النهاية التي كان يستحقها، أليس كذلك؟. ثم رمى ورقة أمام قدمي إميل الذي كان مرعوبا جدا من هول ما رأى. بعدها انحنى مرتجفا وحمل الورقة وشرع في قرائتها:

"لطالما كانت حياتي بئيسة، وكان الحظ يدير ظهره لي دوما، وإن فكر يوما في مد يده لي إلا وصفعني. وكلما حاولت عبثا إصلاح الأمور إلا وازدادت سوءا أكثر من السابق. لا أكاد

أغالي إن قلت أني كنت كالغريق، يبحث عن حبة قش ليتعلق بها علها توصله إلى بر الأمان، غير أن لا شيء يمنحك الأمل مطلقا لمقاومة التيار. كل من صادفت في حياتي كانوا ممن يقتلون نور التغيير في، أناس يستغلون ضعفك فيزيدونك قهرا. فقدت الثقة بالجميع ولم أعد أدري في أي مكان يتوارى الطيبون، وما عدت أكثرت لأنني استسلمت للغرق. حينها مددت يدك البيضاء، وبلا مقدمات انتشلتني بقوة، وأنقذت ما تبقى من آدميتي فانبعثت للحياة من جديد. وحدك أنت من منحتني عملا، رغم أنني سجين سابق، وأمنتني على كل ما في المعرض، وتقبلتني كما أنا في وقت لفظني فيه الجميع. علمتني بأن لا يأس مادام في العروق دم يجري، عاملتني بكل احترام وأدب، كنت دائما تساعدني متى احتجت إلى ذلك، ولكن ماذا فعلت أنا في المقابل؟ جبنت في أول امتحان للوفاء، خسرت وغدرت بك. فكرت في اختصار المسافات، واستعجلت الربح السريع، تناسيت للحظة ما فعلته من أجلي، لقد أعماني الجشع، لم أكن أظن أن الأوضاع ستنفلت من يدي وتزداد سوءا، ليصير الهروب حلا مفروضا، لذا نسبت إليك ما اقترفت يداي من قذارة. ندمت حينها ندما شديدا، وفكرت في طريقة ما لكبح الوحش الذي بداخلي، لكن فات الأوان، فقد تابعت أفعالي الدنيئة مرغما هذه المرة. صدقني لم أود يوما أذيتك ولا أذية بيل أو ليليانا. لكن لا تقلق، الآن وأنا أخط عبارات الندم هاته، أبشرك بأنني أدفع ثمن ما اقترفته يداي. لا أخفيك سرا فهذه المرة الأولى التي أجد نفسي في المكان الصحيح، نعم المكان الذي أستحقه وأدرك فيه أن الموت هو النهاية المثالية لوحش مثلي لم تكبحه حتى إنسانيتك. أتمنى صادقا بأن تصلك آخر كلماتي لتستشعر ندمي الشديد وطمعي في مسامحتك لي، كما أتمنى أيضا أن لا تلقى ذات المصير فأنت عكسي تماما لا تستحق ذلك، رغم أن هناك شيطانا حقيرا يسعى جاهدا للنيل منك. إميل..أنا آسف

حقا، فرغم أنني مدرك بأن ما ارتكبته في حقك صعب نسيانه، لكن أنا لن أقطع الأمل الذي غرسته في قلبي، والذي سيظل موصولا دائما بعفوك.

خادمك هورتن".

كانت لهاته الكلمات وقعا غريبا على نفس إميل، فقد ظل واقفا للحظة جامدا في مكانه تائها وسط الفراغ، ثم فجأة تهاوى بجسده فوق السرير مستسلما لأفكاره وظنونه، استسلام محارب أعياه القتال، وظل يحدث نفسه متحسرا، مستغربا ومتسائلا: لما فعل هورتن ذلك؟ إن كان الطمع وراء قتلك ميشيل، فما الذي أرغمك على قتل البقية؟ ثم ابتسم إميل حزينا مرددا:

– خادمك....أنت لست إلا خادما للشيطان يا هورتن، اشترى ما بقي من آدميتك، ثم ألقى بك في الهاوية دونما اكتراث لتحترق. بعدها صرخ بأعلى صوته: أنت هو الشيطان بعينه، من غيرك، أنت وحدك من رتب لهذا منذ البداية، أنهيت حياة سام ثم كلفت هورتن بخطف ليليانا من المستشفى بعدما فشل سابقا في قتلها. مهلا تذكرت شيئا، آه...تلك العجوز في المستشفى، أنت أيضا من بعثها لي لتقوم بإلهائي حتى تتمكن من خطف ليليانا ومن تم قتلها و...وبعدها انهمرت دموعه بغزارة كالمطر على خديه، وتابع بأسى بالغ، وحزن دفين: ثم بعثت لي قلادتها وحين أغمي علي، وجدت الفرصة سانحة، فأحضرتني إلى هنا لتقتلني كغيري، بعدما فشلت في إدخالي السجن. هذه هي لعبتك الدنيئة منذ البداية نعم هذه هي..

– تحليلك هذا رغم أنه متأخر جدا، إلا أنه صحيح تماما، باستثناء شيء بسيط أغفلته فأحاول بذلك توضيحه. فمحاولتي الزج بك في السجن ليس رحمة مني بك، بل جاءت هكذا كنهاية عشوائية للعبتي، فكيف أفقد الرقم الخامس دون تحريك الثالث والرابع، هذه فوضى أكره

حدوثها في لعبتي المرحة، التي بدأتها بنظام تام وجب احترام سيرورته حتى منتهاه، وأنت محور دوران هذا النظام، الذي لن تتوقف حركته إلا بانتهائك في هذا المكان بالذات. وبعدها أشار بأصبعه إلى عبارة "النهاية" المكتوبة على الحائط.

– أمضيت حياتي في خدمة الناس، فما خنت عهدا ولا خادعت إنسانا، ولطالما ساعدت من حولي حتى وأنا في أشد الحاجة إلى المساعدة. حاولت دوما بعث الأمل في النفوس اليائسة رغم افتقادي لكنه الحياة وحلاوتها. لم أكره أحدا ولا أسعى للانتقام من أي شخص، فلما تفعل بي هذا؟ أنا لم أتسبب لك في أي أذى؟ أي كره دفين ذاك الذي يطبع قلبك سوادا ويدفع بك للعبث بحياتي وحياة أصدقائي هكذا؟؟ كيف طاوعتك نفسك لتستمتع بتعذيبنا وتتسلى بمآسينا؟ وتسمي الموت لعبة تزهق فيها الأرواح والنجاة وهم تتسلى به. أي مختل أنت؟.

– ما هذا إلا سؤال ضعيف من حيث المنهجية التي وضع بها. أتعلم أن عملية تنقية العالم من الغباء البيولوجي يتطلب نوعا من فن الابتكار.

– مريض نفسي مثلك رمم رغبته بالتقليد معتقدا أنه إبداع وابتكار.

– حينما تتغير الأحاسيس تباعا ليكون سيدها الصمت، فاعلم أنك في المرحلة الأصعب. وحينما ينهمر الدمع ممتزجا بضحكات لتأخذ البسمة غير محلها، وحينما تعتصر العين دما في عز الفرح والناس يتساءلون. حينها يمكنك الإجابة بذات هشة أنها مجرد مشاعر ولكن؟....ولكنها غيرتني لأسوأ مما يتوقعه الآخرون. أنا الآن روح مظلمة شكلتها أياديكم القذرة ولم تعد تعترف بمنطق النور. أنا هنا لأبرهن للجميع بأن الخير والشر من صنع البشر، ولولا بشاعتهم لما تجملت أنا بقبحي. أفهمت الآن ليس هناك أي تقليد نمطي فيما حدث.

– إن الخير والشر طبائع في الناس، فمن الحماقة إلقاء اللوم على الظروف، فهي لا يمكن أن تدفعنا إلى فعل ما ينافي ضمائرنا، لأن أفعالنا هي من تعكس نفوسنا الحقيقية المتوارية خلف الأعذار. وما أنت عليه الآن سوى كيان نهل من قيم الشر توجهاته لكي تشبع نفسك المريضة على حساب النفوس البريئة. أنت في الحقيقة شخص حكم على ضميره بالإعدام. وأعماه ضياء القمر فجنح خارج هالته عالقا بين الظلال.

– القمر رحلة لا تكتمل، وغالبا ما تنتهي في منتصف الطريق. والضمير أسوأ ما فيها، فهو عجوز ثرثارة تتصيد العيوب وتجعل من هدوءنا ضوضاء، ومن جمالنا قبحا. لذا كفى عبثا بالكلمات....سكت قليلا ثم تابع قائلا: أحيانا يحاول كل واحد منا إصلاح ما مضى، ولكن هل نحن نسعى بصدق لفعل ذلك؟ هل ما اقترفناه كان خطئا بالفعل أم ندما على غباء لم نغيره؟. إذ تأملنا حقا فيما حدث وعدنا إلى الوراء، فإننا سنقترف نفس الخطأ دون تغيير يذكر، ما يعني أن ما حدث لم نكن نود حدوثه، بل حدوثه لم يكن بالشكل الصحيح، لأن توقعاتنا يبددها منطق الحياة، فما نعيشه في الحاضر، ليس بهدف الإصلاح بل لإتمام ما بدأناه. وهذا هو المبدأ الذي افتقدته في لعبة الموت.

– عن أي مبدأ تتحدث، فرأسك محشو بالأفكار الفارغة التي لن تفضي بك إلا إلى اللامكان.

– هذا ما تظنه أنت، أما أنا فأعلم يقينا أنه مهما تلمست يد العميان المكان، فإنها تخطئ الزمن غالبا.

بعد هذا الحوارالطويل، إكتشف إميل أن هذا المجرم متلاعب وأحمق، ولا جدويمن تجاذب أطراف الحديث معه، لهذا صرخ هائجا في وجهه:

– تعبت من فلسفتك الغوغاء، أخبرني من تكون؟ ولما تفعل بي هذا؟.

اقترب شيئا فشيئا، وبصوت يملؤه الحقد والكراهية أجاب:

– ما أنا إلا زفير موت مرعب يجتاح المدى ببطء، اندثرت أشلاء جسده في عمق المعاناة، لتتحرر روحه في غرفة أكثر بؤسا وحقارة. روح جريئة كبرت بين عتمة زواياها، فأضحت تبصر النور من ثنايا الظلام، وصارت تجنح بسفينتها إلى اللامكان، بعيدا جدا عن كل ما يقيدها ويجعلها لصيقة قهرا بالماضي، ولسوء حظك أنت جزء من هذا الماضي الأسود المعشش في مخيالي، وقد آن الأوان لطمره في الثرى، لتنعم روحي ولو بقليل من السلام الأبدي، ولن يهنأ لي بال حتى أحصل عليه بدون قيد أوشرط، بالمطلق أوبالكل، حتى أصل إلى كليته بتنقية ما علق بها من شوائب.

بعد هذا الكلام الغريب الذي وقع على مسامع إميل كالصاعقة، ساد في المكان صمت مطبق رهيب، واستمر إميل واقفا مستغربا مندهشا يحاول عبثا استيعاب ماسمعه. ومازاد استغراب إميل هو تصرفاته المريبة، إذ أمسك رأسه بكلتا يديه وكأنما يحس بصداع شديد، ثم شرع يتمتم بكلمات كأنما به مس من الجنون، وشرع غير مبال في سرد هلوساته الخرقاء قائلا: الغرفة اللعينة...أجل إنها ألعن مما أنت فيه الآن. الغرفة الشبه المظلمة الواسعة الخالية من أي دفئ، العارية تماما من أي فرش أوأريكة أو أي شيء يضفي عليها طابع الحياة. صمت وسكون رهيب يهيمنان على المكان، فأي همس تتصدع له الجدران، حتى نبضات قلبه كانت هناك كدقات الساعة تنبض في مسمعه على طول الدوام، وأرضيتها الخشبية المتهالكة تنقل صدى وقع الخطوات، كصرير مزعج يلاحق كل من حاول أن يحرك قدميه هنا وهناك. سكون ران في ظلمة المكان، وما بعد الهدوء عينين بريئتين ذابلتين تحملقان في أشعة ضوء النافذة المنبعث من الخارج. سكت لوهلة، بعدها أزال يديه وهما ترتجفان شيئا ما من على

رأسه، وصرخ بأعلى صوته ضاحكا: الإنسان يولد في عمره مرتين، أولاها عندما يعيش تجربة الحياة طواعية، والثانية حينما يخوض تجربة الموت مكرها. وفي كلتيهما يرقص على حبل المعاناة.

بعدما رأى إميل ما حدث، أحس بدوار شديد، ما جعله يتكأ على الدولاب عله يستعيد شيئا ما من توازنه المفقود....في الجانب الآخر كان كاسانو بدوره يتخذ نوعا ما نفس وضعية إميل، إذ كان متعبا نظرا لخروجه بسويعات قليلة من المستشفى. وضع يده على الحائط وأخرج من جيبه منديلا، ثم مرره على جبينه ليمسح قطرات العرق التي تصببت فجأة من أعلى جبينه. ظل هكذا للحظة، ثم بدأ يساءل أفكاره عن هوية القاتل بعدما أيقن بأن هورتن ليس هو الفاعل. وهذا ما جعله يحاول ربط الأحداث ببعضها من جديد عله يصل إلى ماهية حقيقته، وقد انطلق مما وقع مؤخرا من أحداث، وكان أول شيء بدأ به هو ما جاء في مذكرات إميل، وشكه في تصرفات هورتن التي لم تكن بسبب قتله بيل فحسب، وإنما هي أيضا بسبب خوفه مما هو مقدم على فعله، فهو استغل ترك إميل باب الحديقة سهوا ليقدم على قتل بيل، وذلك بهدف إرباك حسابات إميل، حتى يتسنى له نسخ مفاتيح منزله والعمد إلى سرقة توقيعه متى سنحت له الفرصة بذلك، ولربما كان قتل بيل أمرا قام بتنفيذه مادام له رقما في لعبة الموت. وحتى مفاتيح منزل إميل لم تكن سرقتها من أجل العقد فحسب، بل لتتيح له فعل أشياء أخرى. وذليل ذلك عثور الشرطة على نسخة مفاتيح منزل إميل عند هورتن محتفظا بها في منزله، بالإضافة إلى أوراق كان يقلد فيها توقيع إميل الأصلي الموجود في إحدى الصفقات القديمة. ولعل فعله هذا نابع من طمعه في الحصول على المبلغ المغري المعروض عليه من قبل ميشيل من أجل إقناع إميل في بيع اللوحات، خاصة وأن إميل رفض هذا

العرض جملة وتفصيلا. لكن إقدام هورتن على التخلص من ميشيل ليس رغبة منه في إلصاق التهمة بإميل كما ظننت ذلك آنفا، وإنما لإخلاف ميشيل بوعده وعدم تقديمه المبلغ المغري المتفق عليه بينه وبين هورتن سواء عمدا أم شكا في صحة العقد، وحينما أفاق هورتن من الوهم خالي الوفاض، ووجد نفسه لم يستفد شيئا يذكر، فكر في لعبة المذكرة واتهم إميل بأنه هو الفاعل الوحيد، لا لشيء سوى لإنقاذ نفسه من هاته الورطة. لكن رغبة ميشيل الملحة في شراء جميع اللوحات جعله يستعين بخدمات هورتن منذ البداية. وهذا ما يعني أن هناك شخصا خلف الكواليس تلاعب بميشيل وهورتن من خلال صفقة وهمية تلبي غرضا ما في نفسه، وأغلب الظن أن هذا الشخص هو نفسه القاتل المجهول، فهو من يلاحق إميل منذ البداية، ناهيك عن رسمه لميشيل ما يدل بالفعل على معرفته الوثيقة به، بل الأدهى من ذلك هو معرفته المسبقة بما حدث، حيث استخدم نهاية ميشيل كورقة ضغط على هورتن ليكمل ما بدأه ميشيل، فتستره على جريمته النكراء كان جزءا لا يتجزأ من مخططاته. وإذا ما عدنا إلى الرسائل واللوحات المتواجدة في منزل إميل، بدا الأمر جليا، معرفته الدقيقة بكل ما يحيط بإميل، بل حتى رسالته التي تكشف علمه ببحثي عنه. بعد هذا التفكير المطول، اتسع بؤبؤ عيني كاسانو فجأة، وكأنما هو مصباح صغير أومض لينير ضبابية فكره، ليتابع بذلك حواره الذاتي...مهلا لحظة، أيعقل أن يكون هو العميد آذار؟ ولما لا، فهو الوحيد الذي يعلم أنني أهوى مهنة المحقق، وهو أيضا من تسلم ملف انتقالي إلى هنا بسبب تحقيقي في القضية القديمة، وهو الوحيد كذلك من يكره إميل أشد الكره نظرا لما حدث في الماضي لوالده، ولربما هو من تستر على جريمة هورتن محاولا إلصاق التهمة بإميل، وفي نفس الوقت يستعمل هذه الورقة للضغط بها على هورتن، وهو الوحيد من يعلم بالحوار الذي دار بيني

وبينه، وربما كان ذلك إنذارا في رسالته لكي يبعدني عن كل هذا. لكن تلك الرسالة الهاتفية التي توصل بها، وبعدها مباشرة أطلق سراح إميل ستظل علامة استفهام مبهمة، أيمكن أن تكون تلك مجرد تمثيلية لإبعاد الشك عنه؟ أم أنه يستأجر شخصا ما ينفذ مخططاته العفنة في صمت؟؟ أم أنني أسلك بذلك منعطفا خاطئا؟. لكن مهما تشابكت الخيوط وتشعبت إلا أن أبراكساس لن يفلت بفعلته مهما كانت هويته. فلن أتوانى ولو للحظة في البحث عنه وكشف حقيقته. وكلما ظهر شيء جديد، إلا ودنت القضية خطوة نحو النهاية.

أحس إميل بوضوح الرؤية، جلس على المنضدة وظل مندهشا للحظات، ثم ردد بنوع من الاستغراب:

– أنا جزء من ماضيك. أيعقل هذا؟ فأنا لم أنتبه منذ البداية. هذا أنت...نعم إنه أنت...عميد الشرطة آذار. فشلت في سجني باستخدام قانونك الظالم، ففكرت في أسلوب آخر كله قذارة. أنت تعلم أن ما حدث لوالدك في الماضي لم أكن مطلقا سببا فيه لا أنا ولا والدي، فلا تشيد قصر انتقامك على رمال أوهامك.

بعدها قاطعه ساخرا:

– أي غباء هذا...إنه لا متناهي، وهو السبب الحقيقي وراء موت أصدقائك. أتعرف ما هي مشكلتك الحقيقية يا إميل؟؟ أنك تفكر بغباء، وتنفذ الشيء دون تفكير، وهذا أمر خطير جدا وجب إنهائه.

قاطعه إميل مرتعبا:

– ما الذي تعنيه؟.

– لا يمكن للماضي أن يوصد بابه إلا إذا صحح الحاضر أخطائه، ووجودك هنا خطأ فادح يا إميل، وسذاجتك هي أكبر دليل على هذا. حتى وإن أعطيتك فرصة ثانية، حتى وإن أعدنا اللعبة إلى نقطة الصفر فلن يغير ذلك في شيء، وستؤول الأمور إلى نفس الحال الذي هي عليه الآن. لهذا حان الوقت لإنهاء هذه اللعبة، فقد طالت أكثر مما ينبغي.

بعدها تعالت أنغام أغنية الأحد القاتم بشكل تدريجي، وإميل يصرخ متوسلا:

– مهلا لحظة...وهو ينظر مباشرة إلى المسدس الموجه نحو رأسه. فجأة دوت رصاصة في المدى، وتوقف معها صرخات إميل وصدى الأغنية.

في هذه الأثناء كان كاسانو يقلب دفتر المذكرات، لمح عبارات يشيد فيها إميل ببعض لوحاته الفنية التي جسدت رسومها عائلته، كما لو أنهم لازالوا على قيد الحياة، لذا لم يعتبرها قط إبداعا فنيا وإنما إحساسا يبقيه حيا غير وحيد. تبسم كاسانو قائلا: هكذا إذا. وكأنه فطن أخيرا للسبب الحقيقي وراء رفض إميل المستميت لبيعه بعضا من لوحاته. أغلق الدفتر ووضعه في جيب معطفه، وطأطأ رأسه مدركا أن إميل صار في قبضة القاتل، لأن الرسالة التي توصل بها توحي بأن لعبة القاتل مع إميل انتهت حسب الترتيب الذي وضعه، وأن اللعبة منذ الآن صارت بينه وبين كاسانو. هم بالخروج وهو غير مستسلم ولا مقتنع بنهاية إميل، ففي داخله إيمان قوي بإنقاذه. وفي طريقه لامست قبعته شيئا ما معلق فوق باب المنزل فأسقطه أرضا. انحنى كاسانو وحمله وراح يقلبه، كان عبارة عن إكسسوار ماسي، تزين به النساء الثريات فساتينهن اللاتي تردتينهن في الحفلات، كان غالبا لوالدة إميل، فهو يشبه الذي ترتديه في الصورة الموجودة في مذكرات إميل. كان مطبوعا عليه رمز الأوركيدا السوداء، وأسفله عبارة كتبت بزخرفة منمقة رائعة وصغيرة تقرأ بصعوبة مفادها "أن من

ينحني يسهل تغييره وتشكيله، ومن بقي شامخا لم ينحني سيعانقه البياض لا محالة"، هذا الرمز وهذه الكلمات ذكرته بما كان يحكيه خاله عن والدته التي كانت تحب الأزهار، فأسطورة الياسمين هي من استوحت منها حكمة اقتدت بها في حياتها تحمل رمز العنفوان والكبرياء، وهي نفس العبارة التي عثر عليها أسفل إكسسوار والدة إميل، كما أنها كانت تعشق في الورود وردة الأوركيدا السوداء، بشكلها المتموج ولونها القاتم. كل هذا جعل كاسانو يهيم في عالم آخر من التساؤلات المغايرة هذه المرة لسابقاتها....أي مصادفة هاته جعلت من ماضي المبهم الذي لا أعرف عنه سوى ما يحكيه خالي عن والداي، والذين فقدتهما في حادث سير مؤلم، حينما كان عمري ستة أشهر، أن يلوح بشعاع خافت من زجاج حاضري. زخم أسئلة ممزوج بشك يعتصر في داخله، واستحال دافعا له نحو البحث عن صحة ما يعرفه. خرج كاسانو وركب سيارته، وجوارحه تملكها إحساس غريب لم يتمكن كاسانو من تحديد ماهيته، خوف يشوبه نوع من الشك الرهيب من أن تكون هناك علاقة خفية تجمعه وإميل. شعور كلما حاول رفضه إلا وفرض نفسه بقوة في أعماقه، هذا الأخير الذي تسارعت نبضات قلبه وهو يتأمل بدقة الإكسسوار الماسي. تنهد بعمق، وحرك رأسه يمنة ويسرة، وتأوه ألما، وبعدها قرر أن يبحث عن جواب يشفي غليله ويطفئ هذه النار المستعرة في داخله. وكله أمل بأن تكون جل مخاوفه مجرد سراب ومجرد تخمينات. أدار مفتاح سيارته، وانطلق في دربه الطويل نحو هدفه المجهول.

في تلك الأثناء أوصد أبراكساس باب الغرفة، ثم قال بعدها: السقوط في بعد مختلف فكرة بين الحقيقة والخيال، حاول من خلالها المحققون تفسير الحوادث الغامضة المثيرة والمنافية للمنطق، فلم يجدوا إلا تفسيرات واهية يزعمون فيها أن الأشياء التي تفقد إلى الأبد قد

سقطت في بعد زماني ومكاني غير الذي نعيش فيه الآن. فقد آمنوا بإمكانية حدوث فجوة أو انفتاح لبوابة بين عالمين مختلفين، متجاهلين أن هذه البوابة هي عالمي أنا...عالم أبراكساس الرقم الصعب في معادلة البقاء....وتابع قائلا: وأخيرا انهزم الحاضر لوقائع الزمن، سياسة دنيئة خطها جمود بشري أبى الاعتراض وأحجم عن إبداء الرأي. حقا جمود بشري استحق التجربة رغم تلفظه بكلمات أججت بركان تساؤلات داخلي، إشكالات ضاعت في خضم ما يسمى بغياهب التناقضات التي باتت تصدح بصوت له صدى يسمع، والأجدر أن صراخها ذاك ليس بإرادة مني، فالإرادة شيء، ونبش صفحات الذات بحثا عن الأفضل شيء آخر.

هل هذا الذي شرع بنسج حوار داخلي مع أعماق ذاتي دون موافقة مني يجسد ضمير دونية المتعالي أم ضمير غطرسة الوضيع؟ إحساس ما غاب عني سنين طوال، وها هو ذا يراودني بين فراغات الانتصار والندم. فكيف أمكنك أيها المتطفل أن تناجي الصمت في تيه الصحراء؟ ضمير قهري مثلك يبادلني وسوسته اللعينة في وقت فراغه مبتزا كياني دون إذن.

أنا هنا الآن لأؤكد لك أن أبراكساس مادام الناجي الوحيد فمزج العالمين سيظل واقعا لا محالة. إلزم صمتك...فأنا الناطق لا أنت...أنا الواقع وأنت مجرد وهم...أنا السيد وأنت المنصت المؤيد...فلما هذه الضجة وأنت مجرد فراغ؟ أنا المسيطر وأنت الخانع، لذا أتمتم لك بهمسات تحيي المجازر في لعبة سيستمر نزالها بين المعاناة والموت، ولن ينهيها إلا من يستحق لقب الناجي الوحيد.

ظل هذا الحوار السفسطائي يتردد صداه بين أبراكساس وكيانه المطموس الهوية وراء ظلال الماضي وذكرياته. صراع طاحن يطل بويلاته على الحاضر، ويترك باب المستقبل مفتوحا بمصرعيه على المجهول. وبخطى وئيدة اتجه أبراكساس صوب لوحة غير بعيدة عن مرآه،

لوحة غريبة شيئا ما، تحتوي رسما لجمجمة بشرية وفي أسفل اللوحة بصمة يد. أطال النظر فيها، ثم رماها أرضا وأغمض جفنيه مكررا العبارة السابقة كنهاية لحواره الجنوني ذاك:

همسات تحيي المجازر في لعبة سيستمر نزالها بين المعاناة والموت، ولن ينهيها إلا من يستحق لقب الناجي الوحيد.